ABU ABDO ALBAGL

18+

رواية

عائد إلى حلب

عبد اللّه مكسور

مدونة ابو عبدو

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

عائـــدٌ إلى حلـب

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
2013/10/3600

مكسور، عبدالله
عائد إلى حلب- عبدالله ياسر مكسور عمان: دار فضاءات، 2013

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

0-513ISBN: 978-9957-30-511-6

فضاءات للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2013 تشرين أول

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

عائد إلى حلب- عبدالله ياسر مكسور- سوريا

دار فضاءات للنشر والتوزيع - المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
Dar_fadaat@yahoo.comE.mail:
http://www.darfadaa.com Website:

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

عبدالله مكسور

عائدٌ إلى حلب

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الإهداء..

الإهداء..

إلى التي تحمّلت كل جنوني قبل الحرب وخلالها..

إلى رفقتي الجميلة نحوداماس..

"إنها الحرب، تستنهض أجمل وأقبح ما فينا، إنها الحرب حين يغدو الوطن جُمَلاً تصطفّ لتحكي قصة الوجع المكابر"

المؤلف

ABDO ALBAGL

هل يموت الإنسان مرتين؟

إنها قصة حب عنيفة حدّ الموت تلك التي يبنيها الإنسان مع الحياة، فبينهما تتوسع اللذات وتكبر الشهوات، ويصبح الرجل طفلاً يرضع من أمه الدنيا كل ما لذّ وطاب. فكرة الموت هنا تطارد كل من تطأ قدماه هذه الأرض من أي حدود أتى، كيف لك أن تسير بين شهيدين ولا تفكّر في الموت، كيف لك أن تبني أحلامك الوردية ضمن مآذن ترفع كل ساعتين نبأ شهيد جديد، كيف لك أن تسرق من النحلة عسلها لتتذوق طعم السكر في هذا المرار، كيف لك أن تتجاوز كل هذه الحرائق المنتشرة على قارعات الطرقات كما السماء تمتد فوق الأرض، هل يستحق النهار الجديد كل هذه الحرائق؟؟

صعبة هي أن ترى شاباً يزرع فسيلة زيتون أو برتقال وتين بينما يزرع غيره السماء طائرات ورصاصاً.

أستيقظ صباحاً فلا أجد له أثراً، أسأل عنه فيقال لي إنه غادر قبل بزوغ الشمس بقليل، لم يكن يهتم للوداع، هي جلسة واحدة فقط فلم أتوقع أبداً أن يكون لقاء الأمس هو الأول والأخير بيننا، يحدث أحياناً للقاء واحد أن يكون بحجم العمر كله، ويحدث أحياناً أن يحمّلك لقاء واحد قصة شعب فماذا سأقول له في غيابه، هو الذي يحمل من الأسماء الشيء الكثير دون أن يعرف أحد اسمه الحقيقي، فربما تكفيه أن تعرفه الملائكة التي ستقف على

رأسه بعد أشهر قليلة حين نتحلق حول جثته بعد الاقتحام الأخير، هو القادم من خلف الحدود إلى أرض يحلم فيها بتلك الرصاصة التي تحيله إلى رجل بقداسة شهيد كما يعتقد.

لم أستوعب كل ما قاله الطرف الآخر عبر أسلاك الهاتف، ثمة أمر ما يكاد ينفجر من عيني، يضغط على رئتي ليحدث ضجيجاً يملأ هذا الكون، تقعدني رهبة الخبر الأول، ثمة للأخبار أحياناً غبار كزوبعة الرمال، كمحب يجلس في دائرة صوفية ثم ينتفض لا ارادياً محارباً أجنحة الضوء التي يراها هابطة من السماء، ممسكاً بها أو يكاد، كإمام أقعدته آية سماوية على الأرض، كراهب استلقى على ظهره متأملاً رحلة الخلاص الأخيرة للمسيح، كعاشق يحاول أن يرسم صورة على ورق البردي فيفشل، فلا الورق يساعده لإعادة أمجاد الفراعنة، ولا هو استطاع اختزال وجه محبوبته بحرفين مسماريين..

حاولت أن أستجمع قواي مرة أخرى لأرى ما هو مكتوب على شاشة التلفاز أمامي، فحين رن الهاتف انبلج الخط الأحمر مسرعاً، فاتحاً شباك الموت على أرقام جديدة، كانت ثقافة الأخبار العاجلة في بداية عصر الفضائيات العربية في نهاية تسعينات القرن الماضي تثير إعجاب كل من يراها، فكيف لي أنا الجالس في مكان ما في هذا الشرق الأوسط أن أرى ما يحدث في نيوزيلاندا، أو جنوب فرنسا أو ولاية ألاسكا الأمريكية، ثمة أمر ما، فبقدوم العاجل دوماً هناك أمر ما، وفي هذه البلاد دوماً يدور هذا الأمر حول الموت.

ألهذا الحد يصبح خبر الموت مدهشاً، أم أن الموت فقد هيبته في هذه البلاد، لا أستطيع سماع الطرف الآخر، فصدمة الموت وحضوره كانت تشتتني، عاجلاً أيضاً هو أغلق الهاتف ومضى، بينما وقفت أنا أحاول لململة

نفسي وجسدي، وهناك عدو محتمل يشرب الشاي بالقرب مني، على بعد مرمى حجر من صمتي، وكاميرتي تعجز عن الدوران، للموت أيضاً رائحة لا ندركها ربما أبداً، ولكننا نشعر بوجودها بعد أن تعبر ساحبةً معها أحد الذين كانوا بيننا، نذكرها بعد أن تمضي وكأنها سكنت بيتنا فترة من الزمن، وأكلت من خبزنا، ونامت بيننا، وحلمت في أسرتنا، نذكرها بمواقف لمن رحل دون أن نشتم رائحة الدم لنغرق أكثر في صمت رحيل من كانوا هنا..

لا أحد هنا اليوم، فالكل صاروا هناك أمام الموت المحتمل القادم من كل بوابات البيت، فهل الموت يزور الضحية قبل الرحيل الأخير، يطمئنُّ عليه ويصبغه بلون أصفر يسمى غبرة الموت- كما كانت تقول جدتي- أتراه يخبره بأن يكون طيباً مع الآخرين وألا يصرف نقوده كلها ليترك لمن هو جائع خلفه شيئاً ما، أتراه يجعله ينهي التزامه العاطفي أمام من يحب، وأن يشتري ثياب العيد لأطفال لن يروه ولن يراهم بها، هل يأمره أن يسدد ديونه كي لا يحمّل وزره لمن سيأتي بعده، هل يطلب منه أن يبادر بالسلام على من تخاصم معه في غمرة الحياة وضجيجها ليفوز بالثواب الأخير، وكي لا يحمل الطرف الآخر عقدة الفقد طيلة ما يتبقى من أيامه بعد الرحيل المفاجئ، هل ينصحه بأن يمحي من بيانات هاتفه المحمول كل ما يدينه في الغياب، وأن يبقي الدعوات والصلوات والتحيات الطيبات المباركات، هل يقوده لطرق لم يسلكها من قبل أم يدعمه بما هو عليه، ويبقيه كما كان لتجني يداه ما قضي له في زمن مضى حين كان روحاً هائمة كما شاء لها القدر، هل يعطيه الفرصة لصلة رحمه، وتوديعهم واحداً واحداً، ويترك له وقتاً ليستطيع استخدام الهاتف الأرضي للاتصال بمن هو خارج الحدود علّهم يحتفظون بنبرة صوته

بعد الفقد، هل يرشده لكتابة وصيته أو نعيه كما يجب أن يكون أم لا خيار هنا، فكل شيء سيتم بلا طقوس ولا مراسم عسكرية، فهل الموت يغدو موضة في زمن الصرعات المتتالية، كالثلج الهابط فوق الماء..

كان ناجي دوماً يخبرني عن قصص الموت المرعبة فيما مضى من زمن، عن هجمة الموت المفاجئة حين تفتح أبواب السماء كما كان يقول، فهل كان صادقاً أم أن أبواب السماء لم تغلق من يومها أبداً.

أبواب السماء لم تغلق يوماً، والنار تحتاج حطبها كما الجنة تحتاج طيورها، لم تمت الفرحة في قلوب من يحبون الحياة، فظل الرقص قائماً بين شهيدين، وظلت الأنثى حاملاً بطفلها الذي تنتظر رافضة الرحيل، باحثة عن سماء وأرض مليئة بالياسمين في طرقات العمر القصير بعد أن رحل والده عقب الزواج بخمسين يوماً إثر رصاصة مجهولة المصدر.

يحدث أحياناً للوداع ألا يكون لائقاً بحجم من يقف أمامنا فتتمنى لو تستطيع أن تعود خطوات للوراء لتقف أمامه مرة أخرى، وتسترجع ما فات منك من لحظات، فربما لن تلتقي به أو بهم مرة أخرى، ليبقى السؤال في مخيلتك ماذا لو مات أحدنا، ولم نحظ بفرصة الوداع مرة أخرى.

في مطلع عام 2003 كان البرد يسيطر على الشام، ومع نسائم البرد تلك كنت أقف أمام الباب الصغير المطل على أوتوستراد المزة أمام كلية الآداب، حيث فاجأتها بوجودي وكأنها لم تتوقع أن أكون هناك، هكذا تأتي مواعيد الحب دون سابق إنذار وتخطيط مسبق للهفة والشوق، دون ضابط للمشاعر، فالإحساس بالحب لا يخضع لمقاييس نبض الدم وسرعة تدفقه، عشق الأنثى كما عشق الأرض بينهما أشياء لا يمكن إدراكها إلا لمن عاشها. يومها لم أفكر

أبداً بالوداع، ولم يكن يعنيني شكل الوداع بقدر ما كنت أرسم طيلة الليل تفاصيل اللقاء في الصباح.

ربما كنت أعتقد بأني كنت غريباً عندما أرسم لوحة عشق، وأحملها معي في الباص متجهاً إلى الشام كي أرى فرحة عينيها، التي لا تعلم كم أنا انتظرت بصمت أن تبوح لي عن إحساسها بألواني. لم أستوعب أبداً أن تقول لي في نهاية المطاف بعد عامين ونصف من قصة حبنا أننا سنغدو صديقين اعتباراً من غياب الشمس في ذلك اليوم، كيف لحب أن يتحول إلى صداقة؟؟ كيف يستطيع المحب أن يسير بمحاذاة جسد عشقه حدّ الموت على الحياد. كيف لعاشق أن يتعامل بحياد مع أصابع أنثى تمنى أن يتشابك معها إلى الأبد، فهل تكفي كلمتها بأن نبقى رفيقين دوماً كي تزيل كل أوجاعي؟

سألني مرة النابلسي في أحد لقاءاتنا، التي تكررت عدة أشهر قبل سفره الأخير، لماذا دائماً يتغزّل العشاق بعيون الحبيبة وكأن لا شيء في الأنثى يستحق التوقف سوى عينيها؟!! يومها رحت أفتّش في قواميس الشعر العربي عن بقايا وشم على ظاهر يدٍ تاهت من أصابع النابغة، وعن حلمات هربن من شفاه نزار.

الحب يعتمر في قلبي، صرت أعرف هذا الإحساس، أكتشفه قبل وقوعه، ومع ذلك لا بد لي من عدم مقاومته كعادة العشاق الخائفين، سأترك له زمام الأمور كلها، سيقودني إلى دروب أعرفها، سأوهمه أني أكتشفها للمرة الأولى، سأتعثر كما يتخيل، وأجلس على قارعة الطريق أشم عطراً قد حملته ذرات الهواء المنتشرة في المكان، سألعن أمامه كل شيء، وكأن حياتي ستقف فيما لو خسرت هذا الحب، إنه إحساس رهيب أن نحب الأوطان، أن نحمل في

قلوبنا تلك العاطفة لتراب وشجر وبيوت وأنهار وبقايا صور، جرّبت هذا الشعور عندما ركبت السيارة البيضاء من العبدلي في عمان إلى الحدود السورية، وبالرغم من كل ما حدث معي لم أتخلص منه وأنا أعبر بوابة مطار حلب الدولي بجواز مزوّر بعد أن فقدت كل أوراقي، كل المطارات تتشابه مع بعضها، وكل المسافرين نسخ مزوّرة بعضهم لبعض إلا نحن، فنحن متهمون أينما حللنا وبأي مطار نزلنا، أتذكر وأنا أتجه إلى الريحانية التركية كيف وقفت منذ أربعة أعوام خلت في مطار شارل ديغول الباريسي أمام الموظفة القادمة من مستعمرات فرنسا الإفريقية، وهي تقلب صفحات جواز سفري وبعينيها ريبة صرت أفهمها تماماً.. بفرنسيتها الواضحة قالت لي:

- أنت قادم من سوريا..
- لا.. أنا سوري أقيم في دول الخليج..

هزّت رأسها قليلاً، وبدأت أنا أبصق في مخيلتي على هذا الزمن متذكّراً صديقاً قديماً من أيام الجامعة كان يقول لي دوماً:

- ماذا لو لم تقم "الثورة السورية الكبرى" وبقينا تابعين لفرنسا الحرة؟؟
- كنا لن نحتفل بثورة آذار، وعيد الشجرة، والحركة التصحيحية، وعيد القوى الجوية، وعيد المعلم، ووووو..

قضيت في باريس عدة أسابيع لم أتخلص فيها، رغم كل جمال المكان وتاريخه العريق، من عقدة أني كنت محتَلاً وكانوا هم محتلين لبلادنا، ربما هي حماقة أن أفكّر هكذا، لكن هذا ما حصل، وقد تعمّق عندي هذا الإحساس بعد أن أجبروني على التغوّط والتبول في المطار ظناً منهم أني أحمل في معدتي

مواداً متفجرة أومخدّرة، فالعربي أينما ذهب متهم ومدان دون الحاجة لدليل، حتى دون الحاجة لتقديم اعتذار له. لم تفارقني هذه العقدة أبداً بالرغم من محاولات كاميليا التي تعرفت إليها في محل لبيع العطور..

رائحة الأماكن الباريسية تطغى على كل خلاياي الدماغية فأرسم ابتسامة على شفتيّ وكأن زياداً قد عاد أمامي في صومعته الصغيرة في عمان وهو يحكي لي عن فتاة فرنسية عرفها خلال زيارته الأخيرة لتونس..

- يا عمي ما في متل الفرنساويات... شو بدك بالحكي!!

زياد لم يتخلص من سوريا أبداً، فمنذ تشرين **1973** لم يعد إليها إلا مرة واحدة قبل سنتين فقط في زيارة جاب بها البلاد كفاتح يبحث عن فروض الطاعة والولاء من جميلات حلم بهنّ، وكتب عنهنّ في جرمانا والمزرعة وحماه وحمص والشام، التي يرفض أن يسميها دمشق، فهي الشام بيت العائلة الكبير، لابد أنه الآن يشرب سيجارة الجيتان الفرنسية بجانب فنجان قهوته التركية التي علّمني سرّها، حاملاً حقيبته الصغيرة على كتفه الستيني، مستعداً لجولة جديدة من العشق الذي لا ينتهي، اتصلت به فور وصولي لأطمئنه عليّ وعلى أفلامي التي أنجزتها، فوعدني بزيارة ضمن جولة جديدة من رحلاته السندبادية، لم أستغرب أبداً حين ختم وداعه الهاتفي بدعاء يرنّ الآن في أذنيّ:

- يا ربي تحفظلي سوريا.. دخيلك ساعدنا ياربي تنحمي سوريا..

في الريحانية تتشابه الجغرافية بين تركيا وسوريا، وبعض العائلات انقسمت إلى قسمين، فمنهم التركي ومنهم السوري، تتشابه وجوههم وطباعهم وعاداتهم وأساليبهم في الغش والحب، أمر واحد فقط يفترقون فيه

هو أن السوري بات ضيفاً منذ عامين تقريباً على أرض متصلة بأرضه وجذور تتقاطع مع جذوره.

صوت السيارة المتجهة إلى الحدود السورية يحفّز ذاكرتي للعودة إلى زياد، وصوت السيارة الذي أغواه لرسم صورة لها ولشعارها دون أن يراها، ففي ذات يوم من صيف 73 وفد زياد الشاب يومها إلى الشام قادماً من بغداد، التي كان يدرس فيها، ويمارس من خلالها عمله التنظيمي في المؤسسة الثورية الفلسطينية، وبحكم حياته في العراق لم يقدر على التخلص من بعض الكلمات العراقية التي علقت بلسانه وهو يتحدث مع النادل في مقهى الكمال الشهيرة، وربما كانت هذه الكلمات القليلة هي التي دفعت القدر لإرسال دورية من أربعة عناصر لاعتقال هذا العراقي بتهمة التآمر على الدولة والتخابر مع العراق العدو في ذلك الوقت، لحظات فقط والكلبشات (كما يسميها السوريون) كانت محزومة على طرفيه العلويين، وعصابة من القماش على عينيه، وضربات من كل اتجاه وصولاً إلى سيارة ذات صوت ناعم حيث وضعوه في خلفيتها واقتادوه إلى غرفة التحقيق التي لبث فيها ساعات طويلة إلى أن أُفرج عنه بعد تدخل فلسطيني، وغادر فوراً مع تعهد بعدم العودة إطلاقاً!!، في تلك اللحظات كان زياد يرسم صورة جميلة للسيارة التي تقلّه، فيتخيّل لونها الأحمر أو الأسود ومقاعدها المريحة ورائحتها المنعشة!!، وكما يقال في الأثر: إن لم تدرك الشيء فتخيّله!!.

لست مشدود الوثاق ولا معصوب العينين، مع ذلك لا أستطيع تحديد نوع السيارة التي أركبها وقد شارفت الحدود أمام عينيّ.. فأقول في خاطري:

- غلطان يا زياد.. ما في متل السوريات.. شو بدك بالحكي!!

هل يحدث لوطن أن يرمي بكل تلك الفوضى على شوارعه ليستجلب موتاً لقامات أبنائه، كيف لا ومدنه التي أدمنت الفناء طيلة عقود من الزمن، بين كل تلك الفوضى المتجّهة نحو العدم كان الإنسان يسعى دوماً لفرض الحياة في عروق المدينة، فكانوا يتناسلون ويبكون ويرقصون على الخراب كما زوربا اليوناني، فهل كانوا يقلّدون سيزيف في حمل صخرتهم إلى أعلى الجبل مرّات ومرّات!!

ربما يحاول الرجل أن يواجه فشله أو نقاط ضعفه فيذهب إلى لأماكن التي يخافها وحده دون مرافق، كما حدث معي خلال طفولتي، فقد كان لدي رهاب المقابر، فكيف لطفل أن يسير بجانب الموت منكراً أن الموت يحيط به من كل جانب، ترى ما الذي يدفعني لذكر الموت أكثر من ثلاثين مرة؟ أهو إحساسي بقرب الفناء أم أني لا أستطيع أن أمشي في شوارع حياة مهددة بالفناء دون أن أتذكّر رهابي الطفولي!!!

هي مواجهة الوطن.. إحساسك بأن تلك المساحة خلف السياج هي تراب أنت منه وأبوك منه وابنك منه، إحساسك بأن قلبك الصغير يختزن وطناً كبيراً ضمنه، يقينك أنك مهما ابتعدت ستبقى لهذه النسائم مكانتها.

في مواجهة الوطن لا تستطيع أن تميز مشاعرك، فمن على هذه البوابات مرّ غيرك منذ عشرات السنين بطريقين متعاكستين، وكلاهما لم يستطع– ربما– أن يميز بين الأرض خلف الحدود من جهتين، فظل السؤال قائماً أي أرض هي الغربة؟؟

في مواجهة الوطن تقسم على الحب الأبدي للأرض والنساء، فلا يمكن أن تمحي من ذاكرتك–رغم كل أسفارك– كل الجميلات التي مشيت معهن على وقع المساء الذي ذهب مع الأغاني الطويلة، تقسم على الحب الأبدي وكأنك تحب للمرة الأولى، لتسمح مرة أخرى لذلك الطفل أن يظهر من ظلّك المنسي، ليسحبك فتصير تشبه نفسك حدّ التعب إلى الهاوية التي تتلذذ بالسقوط الحر فيها، ولتهتف أمام بوابة الوطن مرة أخيرة لتراب فرح بعودتك، صارخاً أنا القادم من نسلك أيها الحمام.

في مواجهة الوطن تسقط ألوانك كلها فتصبح كالأرض متلوناً حسب الفصول، أنا هنا الأرض وحبة القمح وسنبلتها، فيا أيها العابرون على جسدي باتجاهين عودوا، توقفوا، لن تمروا فوق هذا الدمار.

في مواجهة الوطن جغرافية المكان توحي بالكثير، وبقايا لوحة زرقاء مصبوغة باللون الأسود مكتوب عليها– معك إلى الأبد– لم أكن أعي يوماً أن تكون هي المسافة الفاصلة بين البحث عن الحياة والموت، فكلما اقتربت ذاكرتي من هناك فاحت رائحة الدم المتخثر على الطرقات منتظراً من يستره بالتراب.

كل تحرّك ضمن أي منطقة في هذه البلاد هو بمثابة ركوب المجهول الذي ينتظر فرصة للقنص، تحاول أن تطيل ليلك ونهارك، وتتمنى لو تعرف ماذا يخبئ الغيب لك في ساعاتك القادمة، تتذكّر بعض من راحوا ومن رحلوا حاملين معهم جزءاً من ذاكرتك، فما بالك لو تفيق يوماً لتجد أن ذاكرتك قد سرقها الموت منك بأجساد آخرين، فهل يحيا الإنسان بلا ذاكرة!!

الذاكرة، تلك المشاهد المصفوفة إلى جانب بعضها البعض كفيلم سينمائي عابث تقفز مشاهده إلى الواجهة الأمامية في لحظة تداعيها، فما أن تشتم رائحة عطر حتى تستعيد الصورة التي رافقت إحساسك بذلك العطر لأول مرة بينما تغرق في حنين إلى أيام الطفولة حين تشتم رائحة العجين المخبوز، لتغمض عينيك وكأنك تحاول العودة إلى مسقط رأسك، حيث خبزت أمك كعكاً أو خبزاً ذات عيد، ولترسم ابتسامة بلهاء لا سبب لها إلا في خيالك الذي ينتهي بمجرد أن ترفع جفنيك لترى الواقع كما هو، وليصبح هذا الواقع بعد لحظات جزءاً من ذاكرة تبنيها، وقد تخسرها حين يرحل كل من يشاركك بها ويقاسمك تفاصيلها.

لا شيء يقتل الذاكرة إلا الموت، انتهاء الحب لا يقتل الذاكرة، غضب الوالدين لا يقتل الذاكرة، خسارة الحرب لا تقتل الذاكرة، ترك الوطن إلى المنفى لا يقتل الذاكرة، الزواج لا يقتل كل الإناث التي سكنت الذاكرة، الولادة.. الرياضة.. الطعام.. السفر..الخيانة.. المؤامرة.. الضحك.. البكاء.. النحيب.. العويل.. الرغبة.. الاشتهاء.. النزوة.. الوهم.. الحقيقة.. الحرية.. السجن..

لا شيء يقتل الذاكرة إلا الموت..

يقول جون لانكستر: "بإمكان الذاكرة أن تكون جنة لا يستطيع أحد إخراجنا منها، كما أن بإمكانها أيضاً أن تكون جحيماً لا نستطيع الهروب منها".

الهروب من الذاكرة كالقفز من قارب الحياة إلى المجهول، ربما لأني أعيش عقدة الذنب تجاه ذاكرتي أفكّر بكل هذه التفاصيل، بينما الطريق يضمر شيئاً

فشيئاً لتقف السيارة نهائياً، وأقفز منها مواجهاً السياج الفاصل بيني وبين الوطن... ها أنا أخيراً في مواجهة الوطن، أنتظر على آخر خطوات الغربة مرشداً يحملني معه إلى آخر عهدي بالوطن.

مشاعري اختلفت تماماً، فحين عدت لأول مرة منذ ستة شهور كنت أقف مشدوهاً امام كل شيء، كل بداية لشارع، لكل دبابة، لكل رصاصة، لكل حلم باللجوء، لكل قصة عشق لم تكتمل، ولكل حب نبت وسط الرصاص، كأني كنت قادماً من أدغال الأمازون إلى حاضرة ترفل بالمدنية، فلا أنا أقدر أن أحافظ على صلابتي، ولا أنا قادر على التأقلم مع الواقع الجديد..

بعد رحلتي الأخيرة، وخروجي هرباً من مطار حلب، حيث تم ترتيب الأمر لي، صرت أكثر إصراراً على الحياة، بينما من بقي ورائي ظل مصراً على الموت، أهز رأسي الآن وكأني أبرم اتفاقاً مع القدر أني لن أسأل عن أي أحد كي لا يأتيني خبر الموت، سأتجاهل غياب كل الأعزاء، سأضع لهم تبريرات الغياب، لن أسمح لنفسي بسماع خبر الموت.

حقيبة صغيرة، شفرات حلاقة، وعلبة مرطب للشعر، وبعض المعلبات، وآلة تصوير صغيرة، وكثير من الذواكر الرقمية، وحزمة أوراق بيضاء تنتظر مني أن أملأها.

آخر الخطوات أقطعها سريعاً، أخاف أن يدركني الموت قبل أن أصل وألمس ذلك التراب، خطوات على إيقاع قلبي، أنتفض، ألتوي، أهتز، أشعر بإرادة للتبول، قلبي بين قدمي وعيوني مسمّرة هناك، وبين هنا وهناك خطوات قليلة تختصر رحلة عبر البر والطائرات، وضباط الأمن والأوراق

الثبوتية التي تشبهني والتي لا تشبهني، خطوات تحتضن آخر الأحلام وأولها، وأسقط الذكور وأشرفهم، خطوات ترسم خط نهاية وبداية، حالة من التناقض لا يمكن فهمها كما الفرق بين الحياة في الدنيا والحياة بعد الموت، الحياة حياة والموت موت، ومع ذلك كل منهما بداية لنهاية محتملة، ونهاية لبداية محتملة.

الوطن على مرمى حجر، والحلّاج يسابقني إليه، فأبدأ أردد مقطعاً من قصيدته الشهيرة:

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت ... إلا وحبّك مقرون بأنفاسي
ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهم ... إلا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتك محزوناً ولا فَرِحاً ... إلا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش ... إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكأس
ولوقدرتُ على الإتيان جئتكم ... سعياً على الوجه أو مشياً على الرأس
يا نسيم الروح قولي للرشا ... لم يزدني الورْد إلا عطشا
لي حبيبٌ حبّه وسط الحشا ... إن يشأ يمشي على خدّي مشا
روحه روحي وروحي روحه ... إن يشأ شئتُ وإن شئتُ يشا

قتِل الحلّاج وبقي شعره، ومضت عصور وبقي الوطن الذي أقف أمامه، قصيدة الحلاج هذه أغوتني بعناق لحبيبة عرفتها فيما سبق من عمر داخل أسوار الوطن، كانت تقول لي: روحي روحك وروحك روحي فإن شئتَ أنت مشيتُ كما تريد، مسكينة هي لم تكن تدرك أننا نمشي كلينا كما يريد من جلس فوق الوطن، عيونها أمامي تشبه هذه الأرض، سوداء واسعة، نحيلة

السواعد، مضفورة الجدائل، خصبة الجسد، ولكنها ما زالت وسط الحشا، فإن كانت حية ها أنا قادم باحثاً عنها وعن بقايا الوطن.

هاتفي يرن فيقطع تأملاتي كلها، أرد لفوري:

- نعم..
- السلام عليكم..
- وعليكم السلام..
- أخي.. أنا ما بقدر أوصل للحدود، الطريق مو أمان، حاولت بس فيه حواجز طيارة كتير..
- بسيطة.. يعني انطرك هون أوشو أعمل، لأنو حسب اتفاقي مع أبو محمد رح يكون في حدا ناطرني كرمال الطريق؟؟
- لأ.. إنت ما تدخل اليوم.. أنا إن شاء الله بكرة المسا بكون عندك، ويارب نقدر نرتب الطريق..
- ماشي.. أنا رح أحاول أنام بشي مكان هون لبكرة..
- لأ.. رح ابعتلك رقم تركي، احكيه وخبروا إنك من طرف أبو محمد، وهو رح يرتب الأمور الليلة، وبكرة بيحلها الحلال.. لا تاكل هم!!
- تمام..
- السلام عليكم
- أهلين..

يغلق الخط، وقبل أن أرفع طرفي أسمع صوت استلام رسالة..

***

الفصل الثاني

في مواجهة الوطن أقف وحقيبتي الصغيرة ناظراً إلى الأفق البعيد، ثمة قصص لم ترو بعد، ثمة عائلات بلا مأوى، وأطفال بلا حليب، ورجال على طريق الموت بلا أدوية، في هذه البلاد حين يحضر الموت يهرب كل شيء، أشعر بضيق في التنفس، صدري يطبق على الحجاب الحاجز، فيكبس الرئة التي تكاد تخرج من ظهري، لاهثاً مشدوهاً أمام مواجهة الموت مستعيداً في مخيلتي بعض المشاهد التي صوّرتها وأفرغتها في فيلم سينمائي قصير قبل قدومي إلى هنا، مرة أخرى– وربما أخيرة- ما إن انتهت الصلاة حتى صاح أحد الشبان مكبّراً، فبدأت الحشود تتجمع باتجاه الشارع الذي دائماً كنت أراه مكتظاً لا يتسع لعشرات، ولكنه في تلك المشاهد بات يتسع لآلاف وآلاف، على باب المسجد رأيت شبح الموت يجهّز نباله ليحصد وجوهاً جديدة ذلك اليوم، مشى القوم وكأن الشمس وعدتهم بأسماء جديدة، وألوان جديدة، وأعمار جديدة، والموت قادر على تمييزهم، سواء تلثموا أم لم يضعوا غطاء على وجوههم، وكأنهم يقولون لشبح الموت أنت عبث لا نقيم لك وزناً أبداً، ويتقدمون وأصواتهم ترتفع إلى السماء قبلهم.

أحاول أن أتخلص من هذه المشاهد ولكن كيف السبيل وكل من حولي يهرب منها إلى اللّامكان، أهز رأسي رافضاً إياها وإذ بصورة عبدالعزيز تقفز أمامي، لقد رافقني في رحلتي من حمص إلى حماه وجلسنا معاً على ضفاف العاصي وأعطاني سيارة للعبور بها على الحاجز الكبير واستخرج لي هوية مدنية لأقدّمها كإثبات شخصيتي لمن يسأل عنها، على ضفاف العاصي اجتمعنا وها هويعود إلى ذاكرتي بعد أشهر تقريباً من فراقنا الأخير، وصلني خبر موته عبر رسالة على الفيس بوك، كلمتان فقط، عبدالعزيز استشهد، لا يهم الطريقة التي مات بها وبأي وقت رحل، أقَبل الصلاة أم بعدها؟، أَ قَبل الإفطار أم بعده؟ أ كان معه أحد أم مات وحيداً؟، هل اعتقلوه وعذّبوه ثم قتلوه؟ كل تلك التفاصيل لا تهم أبداً فالثابت أمامي أنه مات ولم يعطِني فرصة لأقول له شكراً على كل شيء، ربما لم يك ينتظر أن أقولها له فهو نذر نفسه لله ولخدمة الناس كما قال لي مرات عديدة، تفاصيل موته عرفتها فيما بعد فقد قتِل بعد الإعلان عن معركة تحرير حماه، قتِل بعد أن طلبوا من المجلس العسكري تزويدهم بكميات من الأسلحة لصد الهجوم المتوقع بين ليلة وضحاها، وحين قال لهم ضابط كبير في المجلس إن القيادة لم تدرس تغطية جبهة بطول 72 كم!!!، قرر أن يمضي برفقة بعض أصحابه ليهاجم الحاجز الرئيس في مدخل المدينة، فشل الهجوم ولقي حتفه، وبعد أيام وجدوا جثته متفسخة في مياه العاصي!!

لم أستطع أن أتواجد في تشييعه، أن أبكيه، أن أصرخ بعالي الصوت فوق جثته الهامدة، أن أنتقم من كل قاتليه ومن تورّط بموته، بينما ظلّ العاصي على هيبته بعد أن ابتلع كل تلك الدماء، عاش فقيراً ومات فقيراً ورحل على

فقره، هل قتلتَ خومبابا يا عبد العزيز لتقطع كل أشجار الأرز؟ هل سقط عند رجليك متوسلاً كي لا يموت كما في الأسطورة؟!!

عندما رويت لناجي ما حدث معي في رحلتي الأولى قال تعليقاً واحداً فقط:

"عندما تقيم في سوريا بعد آذار عام **2011** يصبح الموت اعتيادياً، فتشعر بملك الموت زائراً مقيماً بين البشر، فيبني له بيتاً ومنزلاً ومضافة كبيرة، ويقوم بفحص الراكبين الجدد في حافلته كل يوم، يؤكد وجودهم ويحملهم على النهوض نحو حتفهم حملاً ومن لا ينصاع فهناك قذيفة تأتي بعد تغيير مسارها لتجعله أحد حاملي التذاكر في الرحلة الأبدية".

ناجي لم يهتم بأخبار أخته وعائلتها بصورة أكثر من اهتمامه بتفاصيل الحياة في الوطن، إحساسه الجمعي كان عالياً جداً على عكس من كان يعيش على تخوم الموت، فتكون قافلات العسكر تجوب حارة أو قرية إلى جانب قريته، ويقول عندما يسأله أي أحد:

- مافي شي .. ما في شي.. ما إلنا علاقة..

ناجي وعبد العزيز– رحمه الله– سأضيفها منذ هذه اللحظة إلى جانب اسمه، فهل تكفي– رحمه الله– لأتأكد أنه رحل ولن يعود، كانا يتشاركان بهذا الإحساس الجمعي العام لذلك قضى الأول مغترباً ما تبقى له من عمر، والثاني رحل على أول قاطرة متاحة إلى السماء، فهل قدر المهتمين بالشأن العام في هذه البلاد هوالرحيل بكل اتجاهات السماء والأرض.

أصوات الرصاص تأتي من بعيد، أكاد أسمعها، الغيوم اختلطت بالدخان المنبعث إلى السماء من كل مكان، حقيقة صرت خائفاً أن أدخل،

الخوف سمة بشرية، إن لم نخف لا نكون بشراً، أقول لذاتي لقد واجهت الموت هنا مرات ومرات أحياناً كنت تهرب منه لتختبئ في حضن أمنا الدنيا، لاهثاً على أيام لم تعشها بعد، منتظراً أجمل ما يكون فيها، بينما كان غيرك يسعى للموت بقدميه فيركض قلبه أمامه نحوه غير عابئ بكل من أحبوه أو تمنوا قربه يوماً!!

هكذا الموت في هذه البلاد يأتي على عجل ويمضي على عجل، وليترك على عجل أثراً يذهب على عجل أيضاً بعد أن يحفر في القلب مكاناً، سطوة الرحيل وسكرة الألم بعد الفراق، غصة في الروح تبقى فوق قبر ضمّ من تحب، ولا شيء بالمقدور سوى طلب الرحمة على من رحل، تحاول أن تتمرد على الواقع فتمسك شاهدة القبر وتضغط عليها محاولاً أن تستنهض منها يد الراقد تحتها، ولكن لا مجيب!!

نخزة في القلب تجبرني على التوقف عن هذه اللاجدوى التي أفعلها، فماذا بيد واقف على بوابة الوطن لا شيء معه في مواجهة الدمار سوى حقيبة صغيرة فقط، بأصابع متعرّقة مرتعشة أمسك الهاتف بيدي وأستخرج الرقم وأخبره بأني هنا، أمام الوطن ليأتي ويأخذني إلى غرفة في فندق صغير رخيص على قارعة طريق اسمه الاعتدال.

جميلة هي اللغة التركية فبرغم صعوبتها وغرابة تراكيبها تشعر بحميمية تجاهها، فكل مصدر سداسي في العربية هو ذاته في التركية، لذا تجد أن هناك كلمات كاعتدال، استقلال، احتلال، استهلال..

الغرفة رقم 223 في فندق الامبراطورية في شارع الاعتدال..

أدخل الفندق كسائح يحاول اكتشاف المكان، الغرفة كأغلب الغرف في الفنادق الرخيصة التي زرتها حول العالم، سرير قديم، اضاءة باهتة، جدران مكتوب عليها بقلم حبر أزرق بعض العبارات تركها من سكن الغرفة قبلي، أتوقف لأقرأها:

- "كل شعوب الأرض لها أوطان إلا نحن وطننا يعيش في قلوبنا"..

كردي.

- من هنا مررت أنا.. واحد.
- الحب هوالذي يدوم.. **A M**.
- احترس من سرقة أغراضك..
- سوريا حرة..

الفنادق الرخيصة حول العالم بعضها يشبه بعضاً في كل شيء، لحظات والباب يطرق، كان الوسيط الذي ساعدني للقدوم إلى هنا يطلب مني أجرة الغرفة وبعض النقود ليجلب أغراضاً لي، ويؤكد عليّ ألا أترك محفظتي وساعتي وحقيبتي حتى عندما أدخل الحمام، لم يكن لدي أي خيار، فأخذت بنصيحته وأدخلت حقيبتي الصغيرة إلى الحمام حيث غسلت جسدي بماء بارد.

إنه المساء والليل يغويني لأكتشف المدينة، بعد أن تنام الشمس في كل مدينة تشرق شمس حياة الليل، فللّيل شمسه التي لا تغيب، أحاول أن أتخلص من كل ذاكرتي في الغرفة وأنزل، أخفي الحقيبة الصغيرة تحت السرير وأهبط الدرج الخشبي، في الحقيقة كنت أريد أن أشم هواءً فقط، أريد أن

أعبئ قصباتي من هواء قد عبر الحدود في غفلة من كل الكتائب، هواء لا يشوبه أي شيء، أي رائحة للرصاص أو القذائف أوالدم أوالموت.

أخرج من الفندق، بعد أن أضع المفتاح عند الاستقبال وأواجه الشارع، أمامي خيارين فإما يميناً أويساراً فماذا لوذهبت يميناً وماذا لوذهبت يساراً!!، هي ثنائية القضاء والقدر وللإنسان أن يواجهها بخياراته، أغمض عيني وأترك قدمي تسيّراني.

حين نحاول أن نكتشف المدن الغريبة، نقف أمام كل زاوية أو حائط قد قارب الانهيار، أمام بركة ماء أو تمثال لعظيم رحل، نقترب حدّ الاحتراق من ذاكرتها دون أن نخجل منها، نكتشف أسرارها التي لم تبح لأحد بها، نضيع في شوارعها كعيني نادل جديد في كازينو ليلي، نحاول أن نعتاد عليها فنمشي ملياً في شوارعها، ونأكل من أكلاتها التراثية، ونشتري لباس أهلها التقليدي وكأننا نطلب منها أن تدخلنا في رحمها الأبدي وألا تعاملنا كغرباء جئنا إليها بالحافلة، وسنمضي صباحاً مع أي حافلة أخرى، المدن الغريبة كالنساء التي لا نعرف– ربما– نشعر بالخجل تجاهها بعض الشيء، ربما نحاول أن نظهر بأفضل ما لدينا، بأبهى حلتنا، بأنظف عاداتنا، بأجمل كلمات من لهجاتنا، بقصص حبنا القديمة التي تنبت كالأعشاب التي تظهر تارة على ظهر الرصيف، وتارة في حائط كسره الزمن!!.

مع المدن الغريبة نحاول أن نربط نفسنا بحبل سري فنعيش قصة حب عابرة، قصة عشق غريبة كالمدينة تماماً، محاولة منّا لضخ الروح في سراديب جديدة خلقتها الحياة، ما زلت على أطراف الوطن والوطن عن شمالي أو يميني بينها الأرض من تحتي امتداد له، وأنا هائم على وجهي أراقب أضواء

المدينة الخافتة، أشعل سيجارة وأبدأ بالتلذذ بها، للتدخين قصة معي، قصة طويلة جداً، كما قصص العشق في المدن الغريبة، لم أفهم يوماً ذلك السرّ في تعلقي الشديد به بالرغم من يقيني الطفولي أني قادر على التخلص منه بأي وقت!!

تقطع تأملاتي هسهسة وصوت ضحكة قصيرة فألتفت لفوري، إنهما عاشقان حتماً، يمسك بخصرها بينما تركت يدها تسبح في جيب بنطلونه الخلفي، يقتربان مني، بإنكليزية ركيكة يطلب ولاعة ويشعل سيجارته ويشكرني، ولغربتي التي لم تكسرها المدينة بعد سألته:

- من أين أنت.؟؟
- اسبانيا..
- إنها بلاد جميلة..
- هل زرتها؟؟
- نعم.. اشبيلية.. غرناطة.. ماربيا..
- أوووووه..

أستفزه بذكري لتلك الأماكن، أعرف هذا الشعور فطالما قعدت على ركبتي حين يذكر غريب أماكن ارتبطت فيها..

يسألني:

- من أين أنت..
- من سوريا...
- رباه..
- هل أنت هارب من هناك؟؟

- لا.. أنا ذاهب إلى هناك..

يفتح عينيه وكأنه سمع ما لم يتوقع أن يسمعه.. يحاول أن يفتح مسالك جديدة للحديث عن سوريا، في الحقيقة لا رغبة لي بالحديث عن بلدي مع الغرباء فأرد عليه بتساؤل حول أقاليم اسبانيا والانفصاليين، أسأله عن الباسكيين والكاتالانيين والغاليسيين والأندلسيين، أتطرق للحديث عن الحرب الأهلية المدمّرة التي اجتاحت اسبانيا عام 1936؟؟ بأسئلة مباشرة وسريعة كان أمامي يقف صامتاً فقد فهم أن ما يريد الخوض فيه الآن قد مرّت به بلاده، وما قد يثير استغرابه الآن منتصف الليل سيجد له رديفاً واضحاً في صفحات بلاده، هنا على الطريق في هذا الليل كل البلاد سواء يا صديقي الغريب مثلي!!

يدعوني لاحتساء كأس على شرف الغربة، لا حاجة لي بالكأس فمثلي يمشي بغير اهتداء على أطراف أصابعه كي لا يزعج المدينة فالغريب أديب، أتذكّر الآن وأنا أكتب ما حدث معي أني لم أشرب الخمر يوماً، صار عمري ثلاثين عاماً ونيّف ولم أشرب الخمر في حضرة الغربة متعددة الأوجه وفي حضرة الوطن، أشعل سيجارة أخرى فأشم رائحة العطر الذي تركته الفتاة على أصابعي بعد أن صافحتني، أقترب برأس أناملي لفتحة أنفي مرة أخرى!!

هل يحدث لعطر أن يفتح باب الذاكرة للرجوع إلى ذات ليلة من عام 2002!!

هل يحدث لعطر أن يعيد طعم قبلة لأنثى صارت ملك غيري اليوم!!

هل يحدث لعطر أن يدفع دمعة وسط الخراب اعترافاً بالهزيمة!!

على هذا الرصيف أكمل سيجارتي وحيداً وعيناي تسبح في ظلام السماء، وعقلي بات خلفي بسنوات مضت بسبب العطر!!

يغيب الاسباني وصديقته عن ناظري وأبقى وحيداً وسيجارتي والعطر، المدينة تغويني أكثر كعاشقة تسحبني إلى مخدعها كالوسواس، أمشي وأمشي وأمشي، دخلت أزقة تشبه زواريب بلادي، أبحث عن رائحة المدينة فلكل مدينة زرتها يوماً رائحة لا تشبه غيرها، إنها رائحة التاريخ الذي صُنِعَ بالدم والمؤامرات، أقترب من الحجارة القديمة لحيطان عمرها أكبر من جدي الأول، ألمسها، أحاول أن أتحسس الملوحة بلساني على ضفافها- فعلتها مرة على حجارة باب توما في الشام- أبحث فيها عن قصص عشق لم تكتمل، وعن فتى هام على وجهه يبحث عن خمّارة البلد، وعن أنثى جالت بعينيها المكان بحثاً عن قصاصة ورق من حبيب يتلصص أمامها أو خلفها.

المدن الغريبة دوماً تحمل مفاجأة جديدة، كل موقف هو بمثابة مفاجأة جديدة، لحظات وتتوقف جانبي سيارة ذات دفع رباعي فيها ثلاثة شبان من عمري أو يزيدون قليلاً، يتحدثون معي بالعربية!!!:

- مرحبا..
- أهلاً..
- شو الأخ من سوريا..
- نعم؟؟
- بدك أي مساعدة؟؟
- الشباب من سوريا؟؟
- إي وإحنا مقيمين هون من زمان.. إذا بتحب نساعدك!!

-     لأ شكراً..

-     تعال نفرجيك على البلد بآخر الليل..

أفكّر لبرهة في الأمر فليس هناك ما يدعوني للرفض خاصة أنهم من بلدي وكلنا غرباء هنا، وهم يمثلون لي زهرة الخلود بخبرتهم ومعرفتهم بالشوارع بعد ضياعي.

أسأل نفسي مرة أخيرة قبل أن أصعد إلى جانب الذي يجلس في الخلف، ماذا لو رفض جلجامش عرض أوباتشيم بالصحو ستة أيام وسبع ليال متواصلة؟؟ بالطبع كان سيخسر فرصة الغوص في مياه الخليج لاقتلاع زهرة الخلود، وقد وقفت يوماً على ضفاف البحرين أبحث عن مكان التقاء الرجلين قبل أن يقفز جلجامش إلى المياه.

أتخذ قراري بالذهاب معهم، ولم أكن أعرف أني ارتكبت أكبر حماقاتي حين قبلت أن أشرب فنجان قهوة أعطوه لي فور صعودي..

خمسة أشخاص والعاصي وامتداد الحقول واستراحة محارب تعب من الجولات المتتابعة، والهروب الاضطراري الدائم بحثاً عن خط جديد للحياة، بعض اللوم من كل اتجاه على ما حدث وكأن البلاد تنتظر فرصة للّوم، الأراضي الزراعية هنا تنام كعاشقة مرتاحة البال من كل قاطعي الطريق والخاطفين، كمراهق تقدّم به العمر ففتح أدراج خزانته القديمة ليشم رائحة تاريخه المعتق بالأحلام الوردية والطموحات العالية الغالية.. يتناول ذلك الدفتر الأسود، يفتح صفحاته الواحدة تلو الأخرى.. يوم مضى من زمن ذهب ولن يعود.. يبتسم.. ينتظر يوماً سيأتي مرة أخرى يشابهه بكل

مافيه.... يغلق الدفتر ويضع نقطة في آخر السطر.... لقد تقدم به العمر... وكفى.

لا بد أن نتحرك فالمساء قد اقترب، يشير أحدنا إلى وجود حاجز للجيش بعد ارتفاع الشارع عقب الجسر الممتد فوق نهر العاصي وقبل المشفى بقليل، فيبدأ آخر بوضع خطة تقتضي الهروب من اتجاه آخر لنستطيع الوصول أحياء إلى مبتغانا.

نربط بعضنا بعضاً إلى خشبة عريضة، ونعبر نهر العاصي العظيم، وما هي إلا لحظات حتى نصبح على الضفة الأخرى، هذهِ الأرض منذ عشرات السنين كان يحكمها شخص واحد لنفسه وبأمره يدور أي شيء، آغا أو باشا، وقد عرفناه نحن جيل- الثورة- بالإقطاعي.

حواجز الجيش تتشابه على امتداد الوطن، فهي صورة تكاد تكون طبق الأصل عن بعضها البعض فوق كل متر من التراب، براميل امتلأت رملاً أو حجارة يتموضع خلفها بعض الأكياس، بعضها فوق بعض كستار أمام الجنود الذين سلطوا أسلحتهم على كل من هو قادم من الاتجاه المعاكس.

في زمن الحرب كل اتجاه هو اتجاه معاكس، وكل رجل هو مشروع شهيد، في زمن الحرب قد يغيب العقل عن كل شيء، ويغدو الإنسان عبداً لكل ما هو آت.

- الله ينجينا من الآتي..
- لا تخاف يا زلمة.. بعد شوي بنقطع.. اللي مر علينا أقسى من هيك..
- يا ريت أجلنا طلعتنا لبكرة أو حتى تهدى الأمور.. مو شايف كيف الأوضاع.. والله حاسس إنها القيامة..

-   لا لا.. ان شاء الله ما بيصير شي.. بعدين يا أخي رح نهرب من قضاء الله إلى قدر الله.

-   يا رجل.. الله فكنا من بين ايديهم بالريحانية ورح يفكنا هون.. خلي يقينك بالله كبير..

-   ونعم بالله..

حوارات جانبية تحدث، وخطواتنا تشق التراب الأحمر بخط موازي للحاجز وكأننا فلاحون نعبر أرضنا، أونبحث عن بقايا ثمار لم نجنها..

-   بتعرف شو تذكرت لما قطعنا العاصي من شوي؟؟

-   شو؟؟

-   تذكرت لما قطعنا نهر الفرات وقت هربنا من النجف باتجاه بغداد بعد أن سقطت المدينة؟؟

أسأل أنا:

-   ليش انت كنت بالعراق وقت الحرب؟؟

-   نعم كان ذلك في عام 2003 م.. تلك قصة أخرى.

-   يعني كنت عم تدرس هناك؟؟

صوت طلقات نارية يأتي صوبنا، نخفض رؤوسنا ونبدأ بالركض.. وألسنتهم لا تتوقف:

-   اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم!!

الركض هرباً إلى الحياة هذا أدق وصف من الممكن أن يقال عن ذلك الموقف، لا حاجة لي بشيء إلا الراحة والنوم، ندخل إلى قرية قريبة بعض الشباب المسلحين يقفون على مداخلها، دقائق ومن معي يشرح لهم باختصار

ما حدث معنا وكيف صرنا هنا، يفتحون الطريق، ويرافقنا بعضهم إلى بيت آمن، ما إن ولجت الباب حتى تذكرت بيت جدتي عائشة، مدخل طويل، وأرض مرصوصة بإسمنت أسود، نخلة كبيرة شامخة بلا ثمر وحاكورة صغيرة فيها بعض الخضار، أتوقف وسط الساحة في الدار وكأني عدت طفلاً ألهو حول النخلة، أقفز من سطح إلى آخر وأتسلى في غفلة جدتي حين صلاتها التي لا تنتهي بقطف بعض النعنع أو الخيار، يركض الطفل- الذي كنت أنا- أمامي وعيوني تقاوم دمعتها، لقد رحلت يا جدتي قبل أن أكبر، رحلت يا جدتي دون أن تعطيني فرصة لأقول لك كم أحببتك يوماً، كم بحثت عن رائحتك في كل الثياب والعطور فلم أجدها، ألم تخبرك الريح أني أقرأ لك الفاتحة كل يوم، هل وصلتك العمرة التي وهبتها لك بعد إثني عشر عاماً من وفاتك، هل عرفت أني تزوجت واغتربت، هل أخبروك في السماء أن بيتك القديم لم يبق منه شيء، حجارته كما هي ولكنه مهجور، لقد رحلت الحياة منه منذ زمن طويل يا جدتي، منذ أن مشيتِ وتركتنا خلفك..

سليم، نزار، عبد الرحمن، عقبة وأنا، خمسة جمعنا القدر هناك دون أي ترتيب، لا شيء معنا، نجلس بجانب بعضنا بعضاً وكأننا متنا معاً، ثم دبّت فينا الحياة من جديد، أربعة أيام مكبلين وساعات طويلة معصوبي الأعين في غرفة صغيرة ببيت أرضي في بناية كبيرة هناك، في شارع لا أعرف اسمه، وضمن حي لا أعرف اسمه، مع رجال لا أعرف من أين أتوا، يتحدثون لهجة شبيهة بلهجتنا، ولكنهم حتماً ليسوا من هنا، في الحقيقة لست أدري ربما كانوا من هنا، من مكان ما لست أدري، كل ما أتذكره أنهم عرضوا عليّ جولة في المكان وقد رافقتهم، ولم أصح إلا وأنا مشدود الوثاق مع أشخاص

آخرين، بعد يوم واحد فقط عرفت أن هناك مؤتمراً للمعارضة السورية في تلك المدينة، وهؤلاء كانوا يتعقبون من سيحضر المؤتمر، أقسمت لهم أني لم أحضر مؤتمراً في حياتي، ولكنهم لم يصدقوا، خاصة بعد أن وجدوا في جيبي جواز السفر فأخذوه وما معي من أوراق ونقود، مرة أخرى لا أوراق معي، هل أنا حقاً أنا، أتساءل وأنا أنظر إلى تَلك الوجوه المقهورة، إلى جانبي جلسوا ولكل منهم قصة عن اختطافه، هل هم جنود؟؟، هل هم موالون للنظام فقط، هل هم قطّاع طرق؟؟، هل هم مرتزقة؟؟، لست أدري ولا أحد يدرِي فالثابت أننا اختُطِفنا لأيام أخذوا خلالها كل أوراقنا ونقودنا وبعض ثيابنا، لم يضربونا، فقط حرمونا من الطعام والشراب إلا ما يبقينا على قيد الحياة، ظلوا متواجدين خلال ثلاثة أيام كاملة ثم اختفوا ظهر اليوم الرابع، وبقينا مشدودين بعضنا إلى بعض.

هناك حلقة مفقودة لا أستطيع إيجادها، فلماذا غادروا، وكيف أتت الشرطة التركية إلى المكان بعد ساعتين تقريباً، فكّوا الحبال من حولنا وحققوا معنا، ثم تركونا نغادر بعد أن قلت لهم إني دخلت إلى البلاد من الحدود السورية بطريقة غير شرعية كالآلاف غيري، ولا أعرف من خطفني، ولا سبب الخطف!!.

بعد أشهر سأكتشف أننا كنا فريسة لعصابة تهريب آثار واختطاف للبشر مقابل الفدية..

لكل منهم هنا قصة لم يروها، حاولت أن أكتشف وجوههم، هذا سرٌ تعلمته يوماً من زياد، فكلما كانت العينان صافيتين حمل الإنسان في قلبه قصصاً مخيفةً، سأحاول وصفهم، رجال تقدموا في السن خلال عام واحد

أعواماً كثيرة، بعضهم غزاه الشيب رغم حداثة سنه، قائدهم كان أبو حسام كما كانوا ينادوه، عرّفته بنفسي وبعملي، فأنا لا أتقن استعمال السلاح، كل ما أحتاجه هو كاميرا وبعض الذواكر بعد أن تركت حقيبتي في الفندق الرخيص في شارع الاعتدال، طلب مهلة للتشاور مع أصحابه الذين ساعدونا واستضافونا، وبعد ساعات كانت الكاميرا بين يدي!!

أبو حسام رجل تجاوز الخامسة والأربعين، قالوا لي إنه كان ضابطاً في الجيش، انشق مع بداية الأحداث وأسس هذه الكتيبة، حاولت أن أقترب منه بعد أيام فوعدني بحديث خاص حين تصفوا لأحوال، لم أفهم قصده وقتها ولكني احترمت رغبته.

الحياة في هذه القرية ليست طبيعية كحال الحياة على هذه الأرض هنا، تخوّف دائم من كل قادم، رهبة الموت تسيطر على الجميع، صار الجميع يحترم رغبة الجميع في الحضور أو الانصراف، في الجلوس أو المضي، في البقاء أو السفر، في الزواج أو حمل السلاح، كل ذلك خوفاً من الموت الذي قد يأتي في أي وقت.

الفصل الثالث

صباح العشرين من آذار عام **2003**..

نزار يذكر هذا التاريخ وهو مستلق تماماً على الأرض، وكأن بعض الغيوم الهابطة من السماء فوقه تعانق دخاناً صعد من الأرض برفقة أرواح كثيرة، كان يوماً موجعاً، مات اثنان وبقينا ثلاثة، أي قدر جلبني اليوم إلى هنا كي أشاهد ما حدث، القرية باتت خلفنا وانتقلت إلى الصف الأول في كل نشرات الأخبار.

في ذلك اليوم– يقطع نزار الصمت– نعم في ذلك اليوم قطعت تذكرة إلى البو كمال ومنها دخلت إلى العراق، كانت الحرب على الأبواب، لم أفكّر بأسباب الحياة بل سيطرت عليّ كل أسباب الجنة كي أكون شهيداً فيتقبلني الله هناك، دخلت كالمئات من الشباب العرب، وإلى بغداد كانت وجهتنا..

أصوات القصف من جديد تعلو، ينهض من فوره وأركض خلفه ومعنا ثالثنا، نختفي خلف بعض الأشجار، إنها القيامة، القبور لم تجف بعد،

واللحم لم ينشف، وغلّ الصدور لن يرحم، يلعن كل شيء ثم يبكي، ما أصعب دموع الرجال..

نزار يكبرني بسنوات بينهما عقبة يصغرني بعامين، سليم وعبد الرحمن ماتا بالأمس نتيجة القصف العشوائي، لم أستطع أن أصوّر أي شيء، صرت أشعر أن أصابعي مشلولة تماماً، يغيب عني كل شيء وتبقى عيون من رحلوا، عبر القبضة اللاسلكية يتواصلون بعضهم مع بعض، اتجهوا إلى النقطة صفرين، أبو حسام يحافظ على رباطة جأشه، يكاد يظل متماسكاً، إنها الحرب!! حين يصبح الدم ماءً، لا تحاول أن تتذكر أحد، تبكي على من رحل بلحظته ثم تحاول أن تنسى، تدفنه بأي أرض إن كان هناك متسع من الوقت للدفن، ما يحدث حولي يفوق الكارثة، إنها القيامة، الموت يأتي من كل سماء وينبع من كل أرض، لقد تغيّر الوضع تماماً عن زيارتي الأخيرة، كل شيء تغيّر، لم يعد يجدي قليل من الحق كما يقولون، كل رصاصة من الأمام تتبعها مائة رصاصة من الخلف، إنها الحرب، وكيف يهدأ الثأر بين طرفين، فالأرض غرقت بالدماء من كل جانب،

كيف لهم أن يتقاسموا ثمار الشجرة الواحدة مرة أخرى، مرة أخرى يأتي الصوت من أبي حسام عبر القبضة اللاسلكية:

- اتجهوا إلى النقطة صفرين..

بعض الشباب الذين كُتِبَ لهم البقاء بعد هذه الغارات المتكررة يحاولون التجمع من جديد فنمشي معهم، مائة متر.. مائتين.. ثلاثمائة متر.. وتعود الطائرات لترمي الموت على هذه الجموع، براميل متفجرة في كل صوب،

أمسك بيد نزار وعقبة ونبدأ الركض، ثلاثة نحن خلف شجرتين صغيرتين، تظللنا الطائرات، وأفواج النازحين بدأت منذ وقت لإكمال دورتها، البحث عن مأوى آمن هو الهدف المنشود لكل من حمل أبناءه ومضى، ركضت باللاوعي لأمسك أطفالاً، محاولاً النجاة بهم على مرمى حجر من القذائف التي لم تتوقف، صوت بكائهم كان أقوى من القذائف، وإحساسهم بالموت القادم من كل اتجاه كي يأخذهم إلى درجة من سبقوهم يسيطر عليهم، التمسك بالحياة أو بأطراف الحياة يدفعني للركض أكثر نحوهم، وخلفي من كان معي تحت الأشجار مدّرعين ضد الموت، ولكن هنا لا مجال للاختباء من الموت فهو قد يصلك أينما كنت دون أن تتوقع الطريقة التي قد يأتي بها، وعلى أي شاكلة يكون، وبأي هيئة يكون، لذلك كانت جملة واحدة دوماً على ألسنتهم:

اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وإنا نجعلك في نحورهم!!

اللجوء إلى الله، إلى السماء، إلى أي مكان قد يحميك، أنت المستهدف فوق كل أرض وتحت أي ظل، لا شيء يحميك أيها الهارب إلا رحمة من هم في أمان، إلى بعض القرى المجاورة، بعض الرجال كان يلعن الزمان والمكان والحال التي وصلوا إليها، قد يصل الرجل إلى حال من القرف تدفعه أن يكره نفسه، ويقف مشلولاً لا يستطيع فعل أي شيء، أغلب من استطاع الخروج من الجحيم خرج وقلة قليلة تمسكت بالأرض ضد الموت، هنا لا مجال للتفكير، إما أن تحمل زوجتك وأبناءك وما غلا ثمنه وخفّ وزنه وترحل، وإما أن تبقى مفتوحاً أمام كل الاحتمالات، فكان من هم بيننا من

الجهة الأولى ومن بقي خلفنا ظلوا مشرّعين على كل الاتجاهات دون أن يهيموا إلى مكان.

كان الأطفال يتحسسون ثياب أمهاتهم، يمشون خلف ظل أبيهم، الرائحة وحدها تطاردهم، رائحة الموت والدمار، قرأت مرة أن الطفل يستطيع تمييز أمه من رائحتها فهل لا يزال هؤلاء الأطفال قادرين على استنهاض الروائح في اللامكان، في مثل هذه المواقف لا تعد الأم ذلك الهوى الذي يقصم الظهر، إنها القيامة، فعندما ترى رجالاً يبكون لأسباب يرفضون كشفها تأكد أنك أمام القيامة..

يقطع مشاهداتي نزار ليصرخ بهم: لا تبكون أرضاً تركتوها وهربتم!!!

لا يجيب أحد، خلا طفل واحد لم يتجاوز عمره عشر سنوات ردّ بعنف اكتسبه خلال الشهور الأخيرة.

- لوكنت زلمة روح خليك تحت القصف.. لو أنك زلمة ليش متخبي هون؟؟

نزار أرجوك أن تصمت وإلى الأبد، لا مجال هنا للّوم، البحث عن الحياة هومن دفعهم إلى الخروج، وقد يخرج الإنسان باحثاً عن الحياة فيجد الموت بانتظاره.

- يا الله.. يا رب.
- الله لا يوفقو.. شو عمل بهالعالم..
- وين أبي؟؟
- وين أخوك؟؟
- وين أختك؟؟

أسئلة عمياء تبحث عن إجابات لا تريد سماعها، فالمسؤول عنه إما مفقود أو معتقل أو ميت، أحياناً نسأل عن أشياء لا نرجو سماع إجابتها، وحده صوت أبو حسام كان يعود كل خمس دقائق، يؤكد على الجميع التوجه إلى النقطة صفرين، أتجنّب النظر إلى عيون النساء، فكيف لي أن أنظر إلى عيني امرأة أنا على يقين أني لا أستطيع دفع أي قدر عنها..

لا يمكن أن أنسى، كيف لي أن أنسى هذه المشاهد، وكيف لذاك الطفل أن ينسى، وحدهم المجانين مرتاحون، فلا شيء يهمهم، مشاهد متتابعة كفيلم سينمائي قصير لتلك الخيام التي انتشرت في الزعتري على حدود الأردن، وأخرى في كلّس على الحدود التركية، حالة من العدم مصير هؤلاء، نساء وأطفال وشيوخ ومجانين وأشباه رجال، الدم في كل كف، في كل عين، في كل قدم، في كل كلمة، في كل حبة تراب، إنها الحرب، تعود الطائرات من جديد، نختبئ مرة أخرى، جميعاً نختبئ والبراميل تهبط فوقنا، ومن أتى حتفه يبقى مكانه دون حراك.

الزعتري، كلّس، حواجز الجيش، الحدود، العاصي، مقاهي دبي وجلسات التنظير التي كنا نحاول فيها، برفقة بعض الشباب، أن نحلل ونفكك ونركّب ما يحدث، كل ذلك لا يفي بالغرض ولا يرسم المشهد من جديد، وحده طفل لا يتجاوز الثانية عشرة سنة استطاع فهم المعادلة، انبرى بين الجميع، اتجه نحو صخرة ذات علو، وانتظر حتى تأتي الطائرة، رماها بحجر فقذفه قائدها بوابل من رصاص جعله لوناً على الصخر.. أمام هذا المشهد صرت يقيناً أنّ كل من هو خارج الحدود لا يعي الصورة الكاملة لما يحدث!!

أيّ صوفية تلك التي يصل إليها طالب الشهادة، حالة من التوحد مع الناموس الأعظم، خيال الله على جسده، ظل الله فوق رأسه..

الله.. الله..

ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحـــاً إلا وأنت في قلبي بين وسواسي
ولا آمنت بشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالاً منك في الكأسِ

لا أستطيع أن أذكر الشهادة دون أن أتحدّث عن عبد العزيز، سلكت برفقته طرقاً زراعية متعرجة كالأفاعي، كخصلة شعر لامرأة أتقنت كيف تفرد شعرها، كانت تلك الطرق تحاول أن تشبه المارين عليها، سيارة تضم أشخاص تمترس اثنان منهم على النوافذ بأسلحة خفيفة، وبلا إنارة قطعنا الطريق كله، حجارة تجعل إطارات السيارة القديمة تقفز من مكانها وتعود، بلا أحاديث، سريعة كانت الدقائق كتلك الرصاصات التي أتت على عجل، واخترقت جسده دون أن ينتظر عودتي.. دائماً هكذا الرحيل موجع مؤلم مبكي فالميت لا يتحمّل وزر الفقد بقدر ما نحمل نحن ألم الفقد بعد الغياب، كيف لرجل واحد أن يواجه جيشاً؟؟ لم أنس أن أسأله ذاك فاكتفى بهز رأسه والابتسام، يحدث أحياناً لابتسامة أن تجعلك تفهم كل شيء، وكأنه كان يدرك أن الشهادة هي محطته الأخيرة.

قبل أن يسافر عبد العزيز في رحلته الأخيرة التي لم أحضرها قال لي مودّعاً:

- عد بسرعة سنغزو المدينة معاً!!.. سنغزو مدينتنا معاً!!
- وسأحضر زواجك يا عبد..

لم أكن أتخيل أني أبالغ كثيراً حين قلت له إني أود أن أرقص في عرسه..

كيف يأتي طيف عبد العزيز أمامي ونحن محاصرون هنا، إنها الشهادة وشجاعة ذلك الطفل في مواجهة الموت!!

النقطة صفرين صارت في مواجهتنا تماماً وظهرنا للوطن، مئات من الجنسين تستنجد بالله كي ينقذها وينقذنا، لكل روايته عمّا حدث، والقصص لا تنتهي!!

دعوات وصلوات ودموع، امرأة تحمل طفلاً لم يبلغ الفطام بعد، وشيخ بلغ أرذل العمر، وشاب أصيب بقدميه منذ أيام، وآخر في بطنه وثالث في رأسه، رجل أعمى يجره طفل صغير، الكل يركض إلى المجهول من المعلوم، مجهول أصبح أكثر أمناً من حال معلوم أو مستقبل مفضوح.

كيف لنا أن نهرب وإلى أين؟؟ ماذا فعلتم بنا؟؟ هل قتلتم أحد العساكر على الحاجز القريب؟؟ هل ضربتم دبابة للجيش؟؟ هل أسقطتم طائرة؟؟

أسئلة تنهال من الناس على أبي حسام ولسان حاله صامت لا يرد، كانت تقول جدتي إن الصمت حكمة أحياناً أو في كل الأحايين، كنت أراقبه دون أن ينتبه، أتابع حركة عينيه بشكل مباشر، يعطي التعليمات الصارمة ويبدأ بنقل الناس عبر بعض السيارات القديمة التي غنموها في عدة معارك سابقة إلى مخيم الكرامة، أو ما اتفق على تسميته فيما بعد بمخيم الكرامة.

إذاً هو المخيم، عشرات الخيام على الأرض منصوبة هناك على بعد ما يقارب خمسة كيلومترات، طرقات ليست كالطرقات، معابر للمياه ليست محفورة بعد، أخشاب ستكون أوتاداً بعد قليل، أغطية مرصوصة بالعشرات،

و لا شيء.. لا شيء أبداً سوى أن تبدأ كل عائلة بالسطو على خيمة في هذا الوطن الجديد.

أقف مشدوهاً هنا، فهؤلاء منذ ساعات فقط كانت لهم حياتهم وآلامهم وآمالهم وأسئلتهم الوجودية، وهم الآن مشردون بلا بيت وآمال فقط بآلام جديدة، ماذا لو وصلوا إلى هنا؟ ماذا لودخلت الدبابات من بعيد؟؟ ماذا لو قصفت الطائرات بعد قليل؟؟ ماذا لوصارت مجزرة بكل هؤلاء؟؟ كلها أسئلة مفتوحة للهواء كطفل لا يدرك شيئاً فاتحاً فاه لكل ما هو آت!!

وحدها الأسئلة تعرف طريقها في كل وقت، ولا إجابات شافية إطلاقاً، يصل أبو حسام فأنتهز الفرصة لأجلس معه، ومع محاولته أن يتابع كل التفاصيل إلا أنني استوقفته وسألته عن الذي حصل؟؟

بكل هدوء قال لي:

- إن شباباً متحمسين قد ضاقوا ذرعاً بأربعة قناصة يتمركزون فوق بناية عالية على الطريق المؤدي إلى القرية، فقاموا بحرق المبنى بالكامل بعد أن عجزوا عن كسر الجمود الضارب للحياة حول البناية الكبيرة.

- وماذا بعد؟

- لا شيء.. بعد أن اشتعل المبنى، وحاول القناصة الهرب قاموا بقتل اثنين منهم وهربوا إلى القرية، وكان ما تعرف!!

لحظتها شعرت أن النار حرقت المبنى وبيوت هؤلاء المساكين الذين تشتتوا، حرقتني وجلودهم الطرية، أطفال صاروا عدوانيين، ونساؤهم أمسين رجالاً بلا ذكورة، نصفهم أموات بلا موت وأحياء بلا حياة، برغم

كل شيء هناك حالة من الرضى الذي يشوبه التمرد كثيراً، وبطبيعة الحال دوماً هناك تطمينات بأنهم منصورون مهما كلّف الثمن.

هنا تكمن ثلاثية الحياة، الروح والجسد والحب، في المخيم صورة للحياة من جديد، محاولة لإثبات الوجود، لإعادة الروح الهاربة من كل مكان إلى اللا مكان، لحراستها في خيمة ثم العودة بها كي لا تصعد إلى السماء، هنا ترمم الأرواح نفسها وتسأل عن قريناتها، تبكي من مات وتقترب ممّن بقي على قيد الحياة، تلعن العرب والغرب والمجتمع الدولي، ثم تلتم على جسدها بعد الطواف ناظرة إلى السماء، إلى الله كي يرحمها فقط، كي يرحمها من هذا الذل.

في المخيم لا مقومات للحياة إطلاقاً، فقط هناك انتظار للموت القادم وكثير من القصص التي ينتظر صاحبها فرصة من الوقت كي يرويها لمن يلقي السمع، إنها قصص الثورة التي لم تكتمل بعد، قصص الموت والسرقة وقطع الطرقات، قصص تسكن في العيون ولا ترحل إلا بأمر حاملها ولو شاء لبقيت مدفونة إلى الأبد، ولكن كلهم ينتظرون فرصة للبوح.

كل المآسي تقف هنا، أجلس على ركبتي بعد خمسة أيام كاملة، أمسك أوراقي البيضاء لأبدأ كتابتها كما هي، لن أحذف أي مشهد، أي اغتصاب أو لواط، أي حقن للمورفين، أي سطو مسلّح، أي سرقة أمام أعين صاحب الملك، أي اعتقال وتعذيب، أي تحقيق، أي حريق.. سأكتب ما قالوه كاملاً، فإن كان لك جلد على التحمل فانتظر لتسمع قصص بعضهم كاملة..

أ. ع. م.

العمر: 35 عاماً..

الحالة الاجتماعية: متزوج وأب لطفلتين..

العمل: مدرس لغة عربية..

أنا من الخالدية في حمص، درست اللغة العربية في جامعة دمشق، وخدمت في الجيش بعد تخرجي على الحدود مع الجولان المحتل، عشت حياة عادية كأي خريج جديد، عملت في التدريس، وتزوجت وأنجبت طفلتين (ألمى وسلمى) هما عيناي وروحي وقلبي الذي ينبض، بهما أرى الحياة والبعد عنهما هو الموت، سكنت مع أهلي في بداية زواجي، ثم انتقلت إلى بيت اشتريته بالتقسيط بعد أن استدنت الدفعة الأولى، بعد انتهاء دوامي في المدرسة كنت أعمل بدوام ليلي في معمل للزيت قرب حمص، أريد حياة كريمة لعائلتي، لا شيء أكثر، وما إن بدأت الثورة حتى انطلقنا في الخالدية، كنا ننتظر شرارة البداية، تظاهرت في البياضة والخالدية وباب سباع، كنت في اعتصام الساعة الشهير، كانوا ثمانية من شيوخ حمص، تعاهدنا على البقاء بقلب رجل واحد، دخل الأمن علينا استشهد أربعة شباب، واعتقلوا العشرات كنت من بينهم، أخذوني غدراً بعد أن دخلت إلى شارع جانبي حين هربت من جانب بناء المعلمين، ووقعت على الأرض بسبب قدمي التي انزلقت تحتي فأمسكوني، وضعونا بسيارات كبيرة ثم نقلونا إلى سجن البالوني في حمص حيث جلست ثلاثة أيام، لم يعالجوني فيها بالرغم من انتفاخ قدمي، كانوا يضربوني عليها، كانوا يقصدون ضربي عليها، ثم نقلوني إلى الأمن السياسي بجانب المحطة..

ابنته ألمى كانت بحضنه، هي لا تدرك ما يقول، كانت تداعب خيطاً خرج من بنطلونه، تحاول أن تقتلعه، تعب الخيط من تدليه ولم تتعب ألمى، في الخيمة وحيدين نجلس ومعنا ألمى وأصوات الأطفال في الخارج تبحث عن مستقبل، وبعض الشباب وقفوا على بعد كيلومترات بانتظار مساعدات سمعوا بقدومها من الحدود التركية، مراهقون في منتصف المخيم تماماً بانتظار فتاة تعبر كي يفصلوا جسدها، ويقيسوا طول ساقها وتدوير نهدها، أمر مقرف حقاً، ولكن هؤلاء هم العابثون، سألت أ. ع. م عن هذه الظاهرة فقال لي:

إن الخطأ بدأ منذ البداية حين سمح الأب لابنه أن يخطأ على عمه ويسبه بسبب معارضته لخروج المظاهرات، من هنا فقد الجميع احترامهم، لم يعد أحدٌ يخاف من أحد إلا من حمل السلاح فهو قد يخيف الجميع.. ويتابع قصته وألمى ما تزال تحاول نزع الخيط:

في الأمن السياسي بحمص كنا بغرفة لا تتجاوز الخمسة عشر متراً مربعاً، انحشر بها ما يقارب ثمانين رجلاً، وجوه شاحبة شاخصة راجفة خائفة من القادم، القادم طبعاً من غرفة التحقيق وما فيها، معظمهم جاؤوا من أحياء حمص، تخيّل أن يكون ثمانون شخصاً في غرفة واحدة وحمام واحد، نصفهم جلوس ونصفهم قائمون، إهانات وضربٌ وقمعٌ وبكاء واستجداء..

كان رقم الغرفة ثلاثين، استطعت رؤية هذا الرقم بعد أحد جولات التحقيق حين أعادوني دون غطاء للعين، مكان مقفر من كل شيء، لا إنسانية هناك، تحزن على قصص الآخرين، وتكاد تنسى وضعك كاملاً، تتجاهل آلامك حين ترى أوجاعاً وعاهاتٍ لحقت بهم، مات عشرون رجلاً خلال

التحقيق أو أكثر، رأيت بعضهم وأنا مربوط إلى عمود خشبي، كانت الدماء تحت قدميّ، شممت رائحة الموت الذي سكن المكان، ثم سمعتهم يقولون إنهم سيرمون جثثهم في العاصي!!، كانوا يقولون لنا: إنهم يدافعون عن أمن الوطن، يزعمون أنهم يؤمنون بالوطن ولا يفرقون بين الطوائف، يحتاجون فقط إلى ساذج يصدقهم ولا يرقى بينهم بطبيعة الحال، أو إلى مَوتور يصدقهم ويصدق نفسه ويستغل الساذجين!!.

في الغرفة رقم ثلاثين حدث أمر رهيب، ففي ليلة الخميس الثاني من ذلك الشهر عاد أبو هيثم من التحقيق، وهورجل أعمال اعتقلوه بعد أن علموا أنه يدعم الناشطين مالياً، خلّصوه من كل شيء وأخذوا أمواله وتركوه بيننا في الغرفة، بكى وناح حتى هدأ، ثم قال: إياكم أن تتوقفوا إن خرجتم من هنا، لقد اغتصبوا زوجتي أمامي منذ قليل.. ثم مات..

أ. ع. م بدأ يبكي، لم يستطع أن يتمالك نفسه أبداً، ثمة شيء اعتصر قلبه وكأنه قارب على النهاية، أمسك الأرض بيده اليمنى وعصر التراب، بينما يده الأخرى كانت تداعب أصابع ألمى التي ما تزال في حضنه، بكى وأبكاني ثم عاد للحديث.

س. ك

العمر: 52 عاماً

الحالة الاجتماعية: أرملة وأم لثلاث بنات وشاب واحد.

العمل: ربة بيت.

أنا من دير الزور تزوجت في الغاب بحماه منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، زوجي من ريف حماه، كان يعمل في حوض الفرات، ثم انتقل إلى حوض العاصي، مات بانهيار سد زيزون في عام **2001**، وبقيت وأبنائي الأربعة في الغاب، كنا نعيش من راتبه التقاعدي ومن نهاية الخدمة التي صرفتها الدولة له بعد أن فرض المسؤول عن صرفها نسبة منها ليأمر بصرفها ويعطيها لنا، بناتي لم يدرسن بينما انضم ابني الوحيد إلى الجيش الحر واستشهد خلال مواجهات في ريف حماه الشمالي، دفنوه هناك، لم أره، فصرت أعمل مع بناتي كي نعيش بعد أن أوقفوا راتب زوجي، ولم يهتم بنا أحد من الذين كانوا مع ابني، أعمل في كل شيء، أي شيء، حتى كان اليوم المشؤوم، دخلوا علينا الشبيحة من قرى مجاورة بعد أن علموا أن ابني استشهد في القتال، اغتصبوا بناتي أمامي، لم أستطع فعل شيء، وقفت أتفرج على فض بكارتهن وأنا أبكي، أموت، أتألم، أصرخ معهن، ولكن عبثاً كانوا كالكلاب الهائجة، هجموا على ثلاثتهن، ووزّعوا على بعضهم حبوباً زرقاء اللون، هكذا قيل لي فيما بعد من بعض الجيران الذين وجدوا بعض الحبوب أمام البيت، تم كل شيء بلا رحمة ، ثم أخرج أحد الكلاب من جيبه حقنة وغرسها في فخذَي ابنتي الكبرى بينما وضع آخر مادة بيضاء في مهبلها، خرجوا كالبغال بعد أن سرقوا كل ما كان في الدار، معهم سيارات وسلاح ورجال.

- أين كان الله حين اغتصبوا بناتي؟؟
- أين كان الله حين اعتدوا عليهن؟؟
- أيرضى الله بهذا الفعل؟؟

أصمت أمام دموعها، فهول ما رأت يدفعها لقول أكثر من ذلك. هذه الحالة واجهتها قبل قدومي الأخير، صديقة لي لديها ابن وحيد أيضاً نزل عند إلحاحها الشديد فقرر الخروج من حلب بعد أن أنهى دراسته الجامعية، وفي طريقه إلى تركيا خطفته عصابة من قطاع الطرق، وطلبوا فدية من أمه التي تعمل في الخليج وحيدة بعد انفصالها عن زوجها الذي انتقل إلى طائفة أخرى، وتزوّج لبنانية من الجنوب وترك كل شيء خلف ظهره، اكتفوا بإرسال مقطع فيديولابنها وهويستصرخ أمه لتدفع الفدية كاملة قبل غياب شمس اليوم الرابع لاستلامها الفيديو، وبالفعل عملت الأم ما استطاعت لتأمين مبلغ يقارب **100** ألف دولار خلال أربعة أيام، وباعت ما فوقها وما تحتها، واستدانت ممن تعرف وممن لا تعرف حتى أرسلت المبلغ كاملاً، فأرسلوا لها فيديو آخر وهم يذبحون الشاب بعد أن استلموا المبلغ كاملاً من وسيط.. يومها اتصلت بها ولم أستطع أن أراها، حقيقة قالت أكثر من س. ك بكثير، لم تترك مقدّساً لم تصل له، أستطيع أن أتفهم هذه الحالة تماماً، وربما تتفهمها أنت أيها القارئ!!

سنقول إنها أخطاء ولا يجوز تعميمها، ولكن ما الذي جعلها تطفو وتصبح حقيقة على الجميع التعامل معها وتقبلها والتعايش معها؟؟ برغم رفضي لكل ما حدث أرجو من س. ك أن تتابع حديثها بعد أن غرق وجهها بالدموع، لا أعرف ما الذي دفعني للاستماع إلى هذه القصص التي قطعاً ستكون موجعة حدّ الموت.

تتابع:

خرجوا.. وأتى الناس يتفقدون ما حدث، ولكل مصيبته التي حلّت به، وفي غمرة شتاتي الروحي صرخت ابنتي الكبرى:

- أمي.. أمي.. لا أشعر برجليّ.. لا أشعر بهما.. لا أستطيع تحريكهما!!

ركضت نحوها.. حاولت أن أحركها ولكن عبثاً، كنت كمن يحاول تحويل التراب إلى ذهب بالنفخ عليه، لقد انشلّت، حقنها الخبيث بعد أن تركها عارية بمادة تشلّ الأعصاب، هكذا قال لي الطبيب بعد أن توفيَت.

- هل ماتت؟؟

تهز رأسها، وكيف تريدها أن تبقى على قيد الحياة بعد أن اغتصبوها، وشلوا ساقيها، ووضعوا في مهبلها مادة لجذب الفئران، كانت المادة البيضاء التي وضعها النجس عبارة عن شيء شبيه بالبودرة تجعل الفئران والجنش تأتي من أي مكان لأكلها، ولأن قدميها مشلولة لا تستطيع إغلاق مهبلها (هي لم تكن تقول مهبلها بل تكتفي بقول "ال" وتشير إلى ما بين ساقيها)، وبرغم أني غسلتها بالماء أكثر من مرة خلال ساعة واحدة فقد بقيت رائحتها العفنة التي تجلب هذه الفئران. كان الفأر يقترب من مهبلها فتبعده بيديها فيعض أصابعها، مرة تلو مرة تلو مرة تلو مرة، صارت أصابعها منهوشة بشكل كامل، بان العظم، كنا نساعدها ولكن عبثاً لم نستطع فعل أي شيء حتى استسلمت فنهشت الفئران ما تبقى من عضوها، وبعد يومين ماتت.. أين كان الله؟؟

تجاهلت سؤالها مرة أخرى وسألتها عن بناتها الأخريات.. فتابعت:

بعد أن ماتت الكبرى عزمتُ على الرحيل لأني أيقنت أنهم سيعودون مرة اخرى للانتقام ممن تبقى بذات الطريقة، فهربت على عجل، وقد عادوا بعد أسبوع أو أكثر فلم يجدوا أحداً، فحرقوا البيت وهدوه، كما أخبرتني أم خالد جارتنا التي نزحت أيضاً إلى القرية التي كنا فيها، وبعد ضرب الطائرات تفرقت بنا الحال من جديد!!

يخطر على بالي الآن، وأنا أعيد تفريغ ما قالته، الجنرال شارل ديغول حال عودته منتصراً إلى باريس بعد أن قاد فرنسا الحرة من لندن ضد حكومة فيشي الألمانية، حيث وقف أمام امرأة كبيرة بالسن، وركع مقبّلاً يدها قائلاً هذه المرأة أشجع مني هي صمدت في الوطن وأنا هربت.

س. ك تتكوّر على نفسها وكأنها شعرت أن هناك ثقلاً كبيراً قد انقضى عن كاهلها، فهل كانت بانتظار لحظة هاربة من الموت كي تبوح، يحدث أحياناً للإنسان أن يجلس طيلة عمره بانتظار لحظة واحدة فقط كي ينجز بها ما هو مطلوب من حياته ثم يموت، ربما هي حماقة أن أورد هنا شهادة ورقة بن نوفل في صدقية النبي العربي صلى الله عليه وسلم، فالرجل الذي جاوز العقد الثامن من عمره في صحراءِ قاحلة قال ما عنده أخيراً ومات، وزهير بن أبي سلمى الذي اقترب من مكة كالفراشة التي تقترب من النار، فلا هو استطاع دخولها، ولا استطاع لمس النور النازل إليها في منامه، فاكتفى بوصية لولديه أن يتبعا النور إن أدركاه ثم مات، أتساءل هل كل الأشعار التي قالها في حياته كانت درجة فقط ليصل إلى أبواب مكة، ويروي ما رآه في غفلة من الموت، وهل معلّقته الشهيرة قالها خلال انتظاره لذلك الحلم الذي أتاه قبل الحمى بقليل..

زرت مكة مرتين إلى اليوم، وحتماً سأزورها مرات ومرات إن بقي لي من العمر متسعٌ لزيارتها، ففيها من السحر ما هو كفيل بإعادتك لها مرّات ومرّات دون أن تسأل نفسك ما الذي أفعله هنا، هناك في مكة صرت أستشعر تراباً مشى عليه الأولين دون أن أتوقف عند رسالتهم، وأعمارهم التي أمضوها ليقولوا أمراً واحداً فقط، بين مكة وحمص شعرة لا تزال ممدودة كحبل سري بين جنين وأمه، لم تقطعه ألف وأربعمائة وخمسة وثلاثون عاماً خلت، وسيبقى مشدوداً كما ربط الخط الحديدي الحجازي بلاداً ومدناً بعضها ببعض على مر الزمن، قبر بحمص ضم رجلاً وقائداً وسليل أشراف، رجل خاض، وقف بفتح مكة، وقاتل بحروب الردة، واجتهد بفتح مصر والشام والعراق، ثم ارتحل بعد أن ترك لنا كلمات ظلّت تشدنا إلى هناك، حيث خرج أول مرة تاركاً أثراً له في رمال مكة:

"ما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء".

قد نامت أعين الجبناء يا سيف الله، قد نامت أعين الجبناء يا خالد أمام اغتصاب بنات س. ك، قد نامت أمام كل الذل القادم دون حراك.

صوت صراخ في الخارج، أطل برأسي من باب الخيمة الصغيرة وإذ بسيارة متوسطة الحجم فيها بعض الرجال المسلحين جاءت تحمل أغذية وبطانيات لمن نزلوا هنا، وما إن رددت طرفي حتى وجدت س. ك وأ. ع. م يركضان باتجاه السيارة لأخذ ما يعينهما على استمرار الحياة، انتبهت أن الخيط ما زال متدلياً من بنطلون أ.ع. م هذا يعني أن ألمى فشلت بانتزاعه، أو أنه

داهمها النوم فقررت ترك كل شيء لترتاح، النوم بدأ يتسلل إلى خلايا جسدي، أتراجع خطوتين فقط وألقي بنفسي على الأرض داخل الخيمة وأنام، لحظات وأغادر هذا العالم تماماً..

رأيت في الحلم وقتها أني أحمل أوراقي البيضاء وأكتب وأبكي وأنزف دماً، ثم تنتزع ألمى الخيط وتضعه بفمها وهي تبتسم وبقايا الغبار على شعرها. أتململ على الأرض فأمدّ يدي وأنتزع حجرة من تحت بطانية نامت مثلي على التراب مباشرة، أبتسم وأتذكر كل تلك الأسرّة المريحة التي نمت عليها في بلدان الخليج والقاهرة واشبيلية وباريس وبغداد، كلها لا تعادل بجماليتها هذه البطانية الممدودة على تراب المخيم الذي ينعم فيه الإنسان بأعلى درجات الحرية.. ولكن هل الحرية تغني عن الخبز؟؟

أفيق وأنا أفكر بهذا السؤال..

في المخيم تعرف أن الحياة لا بد أن تستمر مهما كانت الأثمان التي دفعتها، في المخيم عليك أن تتجرد من كل ما حملته معك فيما سبق كي تعيش، في المخيم حياة تختلف عن كل شيء، وما زال الناس هنا يلعنون العرب والغرب والمجتمع الدولي..

أتأملهم ولست أفضل حالاً منهم ، فقد تمكّن مني الجوع، ولكن كانت تكفيني أنني الآن أقف على أكثر كيلومتر مربع على الكرة الأرضية ينعم بالحرية، هنا بإمكانك أن تقول ما تريد دون الخوف من أحد، فالموت قادم قادم..

غريبون هم، يتقاتلون أمام المساعدات المغموسة بالمصالح، وما إن يبردوا حتى يتدفأوا بعضهم ببعض وعيونهم مسمّرة هناك صوب الأمل بأطفال

سيولدون من رحم الألم ليبنوا هذا الوطن كما يحبون، في جلساتهم يعودون لتقييم كل الأمور، العمليات العسكرية، والتسلح ومؤتمرات المعارضة، والدعم الأجنبي، ولغة اللجوء هي وحدها التي تسيطر على كل شيء، لعنتهم يرسلونها إلى كل شيء، يتذكرون كيف استضافوا العراقيين بعد نيسان من عام **2003**، وكيف استضافوا اللبنانيين بعد تموز من عام **2006**، يتذكرون وفي قلوبهم غصة من بلاد العرب التي ترفض أن تعطي أبناءهم فيزا لزيارتها والعمل بها!!

أتذكر وأنا أراقبهم تلك المقولة الشهيرة لنيلسون مانديلا، الذي قضى عمره في السجن ثم خرج ليصبح رئيساً مفدى للبلاد: "إننا نقتل أنفسنا عندما نُضَيّق خياراتنا في الحياة". أكاد أجزم أن خياراتهم مفتوحة برغم مساحة المخيّم الصغيرة، خيارات الحياة لم تزل مبسوطة أمامهم برغم كل التشتت والضياع.

الفصل الرابع

إنه الطريق إلى حلب، على هذا التراب مرّت الأمم والقوافل في رحلتها العظيمة نحوالحياة والنهوض، هذا الطريق الذي أمشيه الآن عبره قادة وجيوش وشعراء وأنبياء، طريق تمتد امتداد الشرايين لتوصل الانسان هنا بأيامه الدامية التي لا تنتهي، كان اقتراحاً صائباً أن نرحل من هناك بعد أن توجّه الجميع إلى الحدود التركية ليلتحقوا بمئات غيرهم، لا شيء في ذاكرتي من حلب سوى قصة عشق واحدة تحت المطر، مرّت سريعاً كليل المدينة، ليس فيها ما يشبه حلب، أحاول أن أتخيّل أشياء حدثت معي فيما سبق فأفشل مراراً، فقد تعاملت معها طيلة عمري كبوابة للخروج من الوطن لا أكثر، هل كنت أتجنّبها كي لا أقع في عشقها ووهها كالشام، أبداً أهز رأسي نافياً هذه الفكرة من عقلي، لا مدينة تشبه الشام، ثلاثة أشخاص جلسنا في سيارة بيضاء بعد أن خرجنا من المخيم المؤقت، فقد داهمنا المطر هناك ولا حياة تكتمل تحت المطر لمن يقيم بالخيام، بأسلحتهم الخفيفة وحقيبتي الجديدة التي أهداني اياها أبوحسام قبل فراقنا الأخير، أتحسس كاميرتي الصغيرة

وأوراقي التي سجّلت عليها بعض الحوادث التي سأعود لأفصّلها فيما بعد، أوراق بيضاء فارغة تؤلمني وتستفزني بينما عيناي تتخيّل تلك المشاهد المجوجة التي وقعت حروفها على الواقع، هي جزء من الواقع وليست كله، لم أتحدث لكم عن باصات الشبيحة وانتهاكها كل شيء، لم أخبركم عن حرق البيوت وتفاصيلها، عن سرقة ثياب النساء الداخلية وعرضها فيما بعد، عن السطو على ذاكرة المكان، وسرقة الصور الشخصية لنساء جلسن هنا ثم رحلن، عن قلع الأشجار وردم الآبار وقطع أسلاك الكهرباء بعد الخروج، عن القتل عن سبق اصرار وعمد!! لا لشيء فقط لمتعة القتل لا أكثر..

لافتة مكتوب عليها حلب 25 كم.. إنها حلب تبدو أمامي من بعيد، للمدن دوماً ذاكرة فهي تحفظ من يأتون إليها وتقبلهم مهما كانت طبائعهم، يعيشون فيها، يتزوجون ويدرسون ويكتبون ويمارسون الجنس والصلاة، تهوي أحلامهم ويكسبون أحلاماً جديدة، يبنون صباحات ومساءات مخنوقة بالضياع والملل ومن ثم يموتون فلا ترفضهم المدن أبداً، فهي أبرمت عهداً مع أرواحهم أن يبقون فيها حتى بعد الممات، أفكّر بأولئك الذين ماتوا وعاشوا وبنوا دولاً ومعابد ومساجد وكنائس وأقاموا الحروب والصلوات المقدسات، كلهم قبلتهم حلب كامرأة تفننت بإيقاع الرجال.

كيف لي أن أشطح كل هذا الحد وأسبح في الأساطير البعيدة فقط لأني رأيت لافتة مكتوبا عليها اسم المدينة، هل عاد يا ترى ابراهيم الخليل إلى الحصن الحصين والهضبة العالية ليحلب غنمة شهباء ويعطي حليبها للجائعين، أم رحل ولم يعد منذ زمن طويل إلى حلب وقلعتها فقط قصة مع

الفاتحين والأمراء والمتصوفين والمتسكعين. حين زرتها أول مرة منذ أعوام عديدة خلال اكتشافي أرضاً تسمى الوطن، وقفت ملياً على بوابة حلب القديمة أمام حي المشارقة الذي عاد كما كان قبل أن يبنى أرضاً خاوية على عروشها تماماً، حدث ذلك في عام **1982** عندما بدأت الحملة العسكرية على بعض أحياء المدينة. لحلب كما قرأت يوماً تسعة أبواب رئيسة اندثرت منها أربعة وبقيت خمسة على قيد الوجود كانت هي المنفذ الأساسي لأهل المدينة للعالم الخارجي. خلال دراستنا في الجامعة كان زملاء لنا من حمص يتندرون على أهل حلب عندما يقولون عن باب الجنان (باب جنين) بإمالة الألف كما في بعض اللهجات العربية القديمة، وقد كانت طريقة يتفردون بها عن كل اللهجات السورية.

اللهجات السورية.. على مطالع حلب يعود أمامي هذا المصطلح، ففي سوريا عدة لهجات متفرقة مجتمعة بعضها مع بعض برابط سري يشدها لأصلها، فهم يتفقون بها رغم اختلافهم اللفظي مثلما أجمع كل من سكن سوريا على تسمية دمشق العظيمة بالشام، فهي الشام وكفى.

في عام **2004** كنت في حمص برفقة بعض الأصدقاء لحضور مهرجان سينمائي هناك، وبعد الفيلم المجري الذي كان باكورة الافتتاح ذهبنا إلى المدينة القديمة، أو كما تعرف بحمص (الحميدية) ، وكان محور حديثنا بالطبع عن معنى كلمة (القمارة) في اللهجة الجزراوية التي يتحدث بها من سكن الجزيرة السورية فوق نهر الفرات، يومها ألهبنا حماسة زميلة تدرس الآداب لإنجاز بحث عن التطابق والتناقض في اللهجة السورية، أتساءل

هل تراها أنجزته منذ ذاك الزمن أم أنها اكتفت- ككل شيء في هذه البلاد- بإظهار الحماسة ثم الهدوء فوراً بمجرد أن ينتهي الكلام.

تقطع تأملاتي أصوات رصاص فأعود لفوري إلى الواقع الذي سرحت عنه، ولكنه رفض إلا أن يعيدني إليه..

- كم بقي لنا من الوقت؟؟

- نصف ساعة أو أقل إن شاء الله ونصل..

أسأل كي أكسر ذاك الجمود الذي أطبق على صدري منذ اعتلائي السيارة برفقة هؤلاء الذين لا أعرف إلا كنياتهم بعد أن قال لي أبو حسام سيرافقك أبوعمرو وأبو خليل إلى حلب بعد أن طلبت منه مساعدتي بزيارة الكتائب التي تقاتل هناك، ها هي حلب أمامي من جديد، تلك المدينة التي ذاع صيتها يوماً، وكانت كل الطرق تؤدي إليها من أي مكان، طرقها المسلوكة دوماً بالصابون والزعتر والحرير صارت معبّدة بألوان الموت، فأي طريقة تختار ستجدها دون أي تعب، كل أنواع الموت هنا، الموت خطفاً، الموت زحفاً، الموت حرقاً، الموت رشّاً بالرصاص، الموت قصفاً، الموت غرقاً بالدم، كل شيء متاح هنا بعد أن غادرت أشعار المتنبي وأبي فراس الحمداني المكان، لم يعد هناك بريق لتاج نور الدين زنكي، ولا هيبة لاسم سعد الله الجابري، ولا للمنبر في الجامع الأموي، ولا للكنيسة في العزيزية، لم تعد هناك لمحة العيش المشترك التي كان يصدّرها جامع الرحمن أوجامع (جكارة) كما يسميه الحلبيون، فلهذا الجامع قصة أخرى حيث يتوسط أربع كنائس وبطريقة فريدة بين جوامع سوريا، بُنيت له أربع مآذن في زواياه لتواجه كل مئذنة مدخلاً لكنيسة، كيف أسمح لنفسي بالشطط كل هذا الحد وأنا داخل

تواً إلى المدينة، فهل يصح أن نبدأ بالتفتيش عن مثالب المدن قبل معاشرتها، إنها حلب والبكاء في حضرتها لا يجوز، هنا نام التاريخ وارتخت الأساطير في العصر الوثني والنوراني والاسلامي، ولكن لم تزل صخورها تحتفظ بذاكرتها عبر أكبر تراث في العالم، في حلب لا يمكنك إلا أن تقف باحترام وتتمتم بما تؤمن كي يحفظها من كل الشرور..

الشرور من كل جانب، بعض الباصات الخضراء المحروقة تماماً على جانبي الطريق، هياكل حديدية ذهبت منها كل أسباب الحياة، بقايا دبابة وخوذات وبدلات عسكرية وعبوات فارغة لرصاص مضى بأجساد آخرين، لا أعرف لماذا لا تنتابني رغبة بالتصوير، أو الاحتفاظ بشيء من كل هذا، هل فقدت بوصلتي وسبب وجودي، هل هي المأساة أكبر من عدستي ومن أعصابي وتحملي، كيف لعاقل أن يقبل بكل هذا، كيف لعاقل أن يقف صامتاً أمام كل هذا الموت، كيف لي أن أتعامل بحياد مع كل هذه الدماء، وأصوات من رحلوا ما زالت في أذني تأبى الرحيل، أنا القادم من مكان آمن إلى المجهول.

في رحلتي الأولى منذ أشهر لم أكن أعي أن كل هذا سيحدث بعد مغادرتي للبلاد، كل الصور التي أخذتها لا تعنيني، تلك الجائزة عن فيلمي لا تعنيني، كل الأشياء لا تكتمل، نصف حلم، نصف مهمة، نصف حياة، نصف موت في هذه المدينة التي قارعت الموت سنوات وسنوات، سأقف على قدم واحدة كي لا أزعجها في نومها، سأتجاهل كل هذه القذائف وأغني لها وأمسح على شعرها، وأداعب ظهرها كي تستمر في سباتها المؤقت،

السبات هو موت مؤقت، النوم هو موت مؤقت، ويقظتي وسط كل هذا هي موت مؤقت..

تقف السيارة ويطلبان مني النزول، سنأكل، ثمة مطعم صغير يبيع سندويتشات على مقربة من هنا، يتركان أسلحتهما بينما أحمل حقيبتي الصغيرة وأمشي معهما، إنها خطواتي الأولى على جسد المدينة، أزعم أني قادر على قراءة وجوه المدن، ولكني هنا أشعر بالشلل، فالتاريخ أكبر مني ووجه المدينة أعلى مني، لا أستطيع البوح، لا أستطيع الصراخ، لا أستطيع البكاء أمام كل هذه المأساة، ألتفت إلى جانبي بعض الناس يسيرون بالشارع، هناك امرأة تحمل أكياساً وأطفال قليلون يلعبون الكرة، هو الإصرار على الحياة، يقطع مشاهداتي صوت أبو خليل، أنتبه، أنه يتحدث لهجة مقاربة للسورية لكنها ليست سورية، تفلت منه بعض الحروف، إنها قطعاً ليست سورية، أمسكه من يده وأسحبه لأسأله من أي البلاد هو؟

يبتسم ثم يقول لي: أنا من إدلب..

- أبداً أنت لست من إدلب.. أستحلفك بالله من أين أنت؟؟
- أنا من تونس..

في الحقيقة لم أتحدث معه إلا بضع كلمات خلال طريقنا، لذلك لم أستطع أن أميّز لهجته بشكل صحيح، كان أبو خليل من تونس أما أبو عمرو فكان من ريف حلب..

دقائق والطعام يصبح جاهزا، أنتبه وقتها إلى عبارة مكتوبة على الحائط المقابل، احترس قناص على بعد **150**م، أيُّ تصالح مع الحياة هذا الذي تعيشه المدينة، إيقاع رهيب بين الموت والحياة، مع كل شمس هناك أنفاس

تتوالى معلنة بداية نهار جديد قد ينتهي برحيلها وتوقفها الأبدي، هنا تشعر أنك محاصر بالنهاية من كل جانب، نهاية قد لا تليق بك، ربما لا تهتم لكل تاريخك واسمك وأفعالك وصلواتك وابتهالاتك ودعواتك، قد يداهم عناصر الأمن المكان بأي لحظة فلا يكن أمامك إلا التوقف عن كل شيء وانتظار ما قد يحدث، كنت أود أن أفتح نقاشاً مع أبي خليل، ولكن هناك شيئاً ما منعني، شيء بداخلي قال لي لا تتهور فهناك ربما متسع من الوقت كي تتحدث وتسمع.

هنا لا تهم الأسماء أبداً، هكذا هي عوالم النهايات دوماً، ينهون أكلهم ويتحدثون عبر القبضة، وماهي إلا دقائق حتى ينضم إلينا شاب يقود دراجة نارية، تحدّث معهم على انفراد، ورأيته بطرف عيني يعطيهم مفتاحاً، ثم طلب مني أن أركب خلفه بعد أن ودّعهما، ومضينا نشق الطريق وبعض النسمات تداعب وجهينا.

ندخل زواريب صغيرة، ونخرج عبر شوارع ضيقة إلى فضاءات أرحب، نمر بالقرب من سيف الدولة، ونعبر مفرق العلوم وحديقة الزهور، لم يتحدث معي أبداً طيلة الطريق حتى وصلنا إلى بناء يشبه هيكل المدارس في سوريا، عبارات دينية افترشت واجهة السور الخارجي كما افترشت عائلات حديقة الزهور بلا مأوى، فالأرض تقلّهم والسماء تظللهم.

(سيف الدولة أمير حلب، علي بن عبد الله بن حمدان الحمداني التغلبي، من بني حمدان الذين تنتسب إليهم الدولة الحمدانية، كان راعياً للفنون والعلماء، وتزاحم على بابه في حلب الشُعراء والعُلماء والأدباء والمفكرون، ففتح لهم بلاطه وخزائنه، حتى كانت له عملة خاصة يسكّها للشعراء من

مادحيه، وفيهم المتنبي وابن خالويه النحوي والفارابي الفيلسوف، كما اعتنى بابن عمه وشقيق زوجته أبي فراس الحمداني شاعر حلب. وقال هو نفسه الشعر، وله أبيات جيدة، وأصبحت عاصمة دولته حلب مقصداً لكافة العلماء والشعراء العرب في فترة حكمه).

قرأت ما سبق مراراً عبر الويكيبيديا، دون أن أتوقف يوماً عند مذهب سيف الدولة الذي كان يدين به، وهذا ما لفت نظري في خطبة الجمعة التي أديتها معهم بعد يومين من وصولي إلى هنا، هنا يعني المدرسة التي دخلت إليها وقد كتبوا بخط أسود عريض على مدخلها: إحدى مدارس سلسلة نور الحق.

هنا جبهة النصرة.. ادخلوا إن شئتم سالمين!!

أعود إلى البداية لأروي القصة من أولها مرة أخرى كي تصير الصورة واضحة أكثر، عندما دخلت فندق الامبراطورية في شارع الاعتدال وجدت لافتة ملصوقة على الجانب الأيسر للباب مكتوب فيها بالعربية بحروف واضحة:

"إذا كنت من جبهة النصرة فهذا ليس مكانك".

وعندما تم اعتقالي برفقة الأصدقاء من قبل الشرطة التركية، بعد أن تم تحريرنا من العصابة التي كانت تستهدف معارضين وتبيع آثاراً، سألوني عن جبهة النصرة وأعضائها، ونزار روى لي كيف تعرّف إلى بعضهم في سوريا قبل خروجه الأخير لتركيا لتأمين بعض أجهزة الاتصالات، كنت أسير بمحاذاة جبهة النصرة دوماً دون أن أشعر، أمشي على خطوات مشى عليها عناصرها، كنت مع جنديين فيها دون أن أدري أني أركب سيارة مفخّخة

بشهيدين موقوتين، ركبت فوق الموت وبه، عندما أمطرت السماء وفاض المخيّم بالمياه غادرت أغلب الأسر إلى تركيا مباشرة، وبعضها عاد إلى قريته، فالموت في الوطن كان أخفّ ألماً من الموت في الغربة ضمن مرارة الذل واللجوء، عندما أمطرت طلبت من أبي حسام أن أجلس معه بعد أن غادر الجميع، وقد بقيت وإياه وبعض العناصر، فطلبت منه تحقيق رغبتي في زيارة مركز لجبهة النصرة، كنت أرغب خوض التجربة بكل ما فيها، قال لي: إنهم لا يحبون رجال الإعلام ويكرهون الكاميرات، فتعهدت له بعدم التصوير إطلاقاً، فقط كنت أريد أن أرى لا أكثر!!

أبو حسام..

أجلس وأبو حسام بين أشجار على قارعة طريق، بينما يمسك بيده رشاشه، وبيده الأخرى قبضة لاسلكية راح يداعب برأسها التراب، سألته عن هذا الوضع، وهو الذي يحظى بحضور قوي وهيبة عالية وكلمة مسموعة بين الجميع، لم أستوعب بداية تلك الطريقة الخاصة في التعامل التي كنت أحظى بها من طرفه حتى أعلمني أنه اطّلع على بعض القراءات حول كتابي الأخير، في الحرب دوماً هناك متسعٌ لكل شيء، للحب والسياحة والعقيدة والزواج وإنجاب الأطفال، في الحرب دوماً هناك من يقوم بالفعل، وهناك من يراقب هذا الفعل، فإما يقبله كما هو ويتحمل كل تبعاته أو يرفضه فيرحل مع انطلاق أول رصاصة صوبه، في الحرب ثمن الرجل رصاصة مهما علا شأنه وارتفع، كان يتحدث عن ابنيه اللذين تركا دراسة الطب والصيدلة والتحقا باحدى كتائب الجيش الحر في جسر الشغور ثم ما لبثا أن استشهدا، أراقب حركة عينيه حين يتحدث، إنه صامد صلب قوي

النظرة حادّها، مؤمن بكل ما قد حدث ومسلّم أمره لما هو آت، سألته لماذا لم يكونا معه فأجاب: كنت في السجن..

يضغط على رشاشه ويتركه مباشرة ليضع يده على كتفي طالباً أن أحفظ قصته كي أرويها عنه أو أكتبها يوماً، عاهدته فوراً فمثلي لا يملك أن يرفض أمام رجل بحجم أبي حسام، فيتنهد ويتابع ما بدأ به:

لقد خدمت في عدة قطع عسكرية حتى تم نقلي إلى دائرة المخابرات العامة في الشام، كنّا نعمل في الفرع الخارجي، لقد زوّدنا دولاً عربية وغير عربية مرّات ومرّات بمخططات لتفجيرات كانت تنوي القيام بها شبكات ارهابية لزعزعة الأمن في المنطقة، ذهبت في مهمات خارجية كثيرة لحضور دورات أو لتجنيد عملاء، أسأله عن سبب سجنه فيشير لي بالهدوء، وكأنه يرمي بما تبقى لديه قبل الرحيل الأخير، كان كمن يلبس معطفاً وبدلة رسمية وعباءة عربية، وقد بدأ بخلع ملابسه قطعة قطعة، ومع حركته صار الحديث يبدو كمن يرمي بثيابه كاملة ليبقى كما بدأ مسيرته قبل أن تلوّثه الدنيا.

في تشرين الأول من عام **2007** أرسلوني إلى القاهرة بشخصية تختلف عن عملي واسمي، وأمدوني بأموال لأفتح شركة مقاولات ضخمة، وحرصوا أن تكون كل مشاريع الشركة بالقرب من مطار القاهرة الدولي، تم كل ذلك بالتنسيق مع خلايا حزب الله النائمة هناك، التي كانت تسهّل مهام الشركة حتى ارتقت لتكون من أهم شركات المقاولات في القاهرة، واستمرت الحال على ذلك، أزوّد مركز المتابعة بتقارير تفصيلية عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي المصري، والشخصيات التي من الممكن شراء ذممها، إلى أن طلبوا مني نهاية عام **2009** تفجير مطار القاهرة الدولي

عبر إدخال كميات من ال TNT ضمن بعض مواد البناء التي كنت أستخدمها لإنجاز مشروع التوسعة في المطار، توقفت ملياً، وحاولت التهرب مراراً، ولكن لا مجال أبداً حتى أبلغوني بساعة الصفر حيث كان الاتفاق أن يكون التنفيذ عقب اثنتي عشرة ساعة من استلامي الإشعار.

كنت أستمع إليه وأشعر أنه يخبّئ عينيه بعينيّ، يضع أغلى ما لديه بين يدي، هل هو شعوره بقرب النهاية، هل هناك من يؤمن أن صحفياً يؤتمن على سر بهذا الحجم، هل لي أن أبحث له عن أعذار لعمله الطويل هناك، أسئلة تخلق ضجيجاً في رأسي يقطعه هو بتنهيدة أرسلها عبر الفضاء المليء بالغيوم والدخان ليعود بعد ذلك لإكمال ما كان وسط لهفتي لمعرفة المزيد..

عندما استلمت الإشعار كان هناك من يراقب نشرات الأخبار كل ساعة لسماع النبأ الذي سيهزّ الشرق الأوسط برمّته، وليقيني أني أخدم بلدي، ولا طائل للوطن من هكذا عملية، انتظرت مضي عشر ساعات كاملة بعد الإشعار ثم اتجهت إلى طبيب مصري ساعدني في الخروج من هذه الأزمة حين أقنعته بضرورة استئصال الزائدة الدودية، وهذا أدى إلى تأجيل العملية كلّها لأن كل المفاتيح كانت عندي فقط، ولا يمكن تدبر الأمر خلال ساعتين..

وأنا أرقد في المشفى طلبت من الطبيب، الذي ربطتني به علاقة شخصية فور وصولي للقاهرة، الاتصال بأحد ضباط المخابرات المصرية، ودعوته لزيارة عيادة الطبيب في ذات التوقيت الذي أكون أنا موجوداً في العيادة لإجراء مراجعة للجرح، وكان ذلك حيث أطلعت الضابط على المخطط بالمجمل، وخرجت من العيادة إلى المطار حيث كان هناك استدعاء لي من

الشام، وما إن وصلت إلى المطار حتى اعتقلوني وأودعوني السجن، ثم خرجت بعد سنة كاملة لأعود إلى الخدمة في التدريب الجامعي، تحت المراقبة قضيت ما يقارب من عام ونصف عام حتى بدأت الثورة، وانضم أبنائي إلى تشكيلات الجيش الحر، فتم اعتقالي من جديد، ولبثت في السجن سبعة أشهر، ثم خرجت لأنهم لم يثبتوا عليّ أي اتصال بأبنائي أو بأطياف المعارضة، بل استطعت إقناعهم بولائي المطلق للدولة، وإيماني بمسيرة الإصلاح والتطوير والتحديث التي تم الإعلان عنها، وفور خروجي من السجن جئت إلى إدلب وأعلنت انشقاقي، وقمت بتشكيل هذه الكتيبة التي انضم إليها كثير من الشباب المؤمن والقسم الأكبر سبقنا إلى السماء..

استوقفتني كلمة المؤمن التي قالها: فسألته عن الأوضاع العسكرية ورؤيته للقتال ومستقبله.. فاختصر كل شيء بجملتين فقط:

- لولا وجود الكتائب الإسلامية التي تقاتل على الأرض لاستطاع النظام منذ زمن طويل إخماد هذه الثورة.

- هل تقصد المجاهدين؟

- لا.. حديثي عموماً ولا أخص..

- جبهة النصرة؟؟

- جبهة النصرة وغيرها.. كتائب أحرار الشام، الحق، الصحابة، الفاروق..

- هل كتيبتك ضمن هذه التشكيلات؟؟

- لا.. نحن نتواصل وننسق العمليات، رغم أني لست ضمن أي تشكيلات..

- أريد أن أرى جبهة النصرة؟؟

حقيقة لا أعرف ما الذي دفعني لطلب من هذا النوع، ربما هي الرغبة بالاكتشاف والمغامرة خاصة بعدما أشيع عن إجرام منسوب لهذه الجبهة تحديداً، وقد قرأت عدة تقارير في الصحف العالمية عن انتشارها وسيطرتها على مناطق في حلب، وربما جملته التي قالها بداية حديثه هي التي استفزتني لأقترب من هذه الكتائب، ولأن جبهة النصرة هي أشهر التشكيلات الإسلامية التي تقاتل على الأرض.. ربما.. المهم أني طلبت منه ذلك فأجرى حديثاً للسؤال عن وصول شخصين اسمهما أبو خليل وأبو عمرو..

يحدث أحياناً لحديث عابر أن يُغَيِّر مجرى الحياة، فكيف ستستمر أيامي بعد هذا الحوار، قطعاً لن تكون الساعات التي تليه كتلك التي سبقته، حديث لا يتجاوز ثلاثين دقيقة، به كل ما يجعلك تبصق على كل ما مضى من أيام لم تكن فيها هنا.

على إيقاع الموت ودّعت أبا حسام، حاولت وأنا أعانقه أن أختزن رائحة بدلته العسكرية بأنفي، هناك يقين يخبرني أني لن أراه ثانية، أشد على كتفه فيبتسم ويقول لي:

- لا تقلق.. كل شيء سيكون بخير.. سأنتظرك لتمر علينا حينما تعود.

حقيقة صرت أخاف أن أعد أحداً بأنني سأعود، فقد سبق لي أن وعدت عبد العزيز- رحمه الله- أن أرقص بعرسه وما فعلت، فاكتفي بهز رأسي ببلاهة.

هنا جبهة النصرة..

المدرسة أمامي وأنا في داخل ساحتها، بناء من طابقين أمامه فسحة سماوية، رجال من جنسيات مختلفة يحرسون الأرض بكعوبهم، يحمون بعضهم بعضاً ويبعدون الموت، إنها الحرب لا يسلم فيها أحد، معظمهم ملثمين كالتاريخ الذي قرأناه مراراً عبر السنوات الماضية، هنا يصنع الموت والخبز على حد سواء، يبحثون عن صباح لم تدنّسه الطائرات، يرفعون أيديهم للسماء وبعضهم يقرأ القرآن مستنداً على حائط اخترقته رصاصات سابقة للوقت، حلقات هناك يتدارسون بعض الأحاديث ويحضّون بعضهم على القتال والجهاد، ثلاثة رجال هربوا من زخم النهار إلى النوم على بعد عشرات الأمتار مني، حرّاس فوق البناء متمترسون بالساعات فوق الزوايا، لا تحرّكهم أنباء الموت الذي أتخيّله بينهم، يمشي يسلّم على هذا، ويقول لآخر قد جاء دورك، ويَعِدُ ثالثاً أن اليوم الموعود قد صار قريباً، الموت كالشيخ يطوف بهم يرى مصاباً فيتركه ويأخذ آخراً قد أتى وقته للواجب المقدّس، ماذا أتى بي إلى هنا؟؟

الكل يسعى للرحيل عن الحياة، هنا تغدو الحياة مرحلة كل ما فيها يثقِل القلب ويدميه، ذكريات الطفولة والمراهقة والشباب، حبيبة ضاقت بها الأرض، وامرأة تنتظر في الظلام عودة مجاهد بعد الغياب، أطفال بعمر الورود ينتظرون، أخوة للموت ينتظرون، أحدهم سرق الحياة من هنا، لا ضحكة لا بسمة لا هزو، فقط استظلال بذكر الجنة والحور العين وأنهار العسل والخمر واللبن واللؤلؤ والمرجان وصبيان مخلّدون، صورة وردية

يرسمون بها المستقبل بعد الموت كما يرونه، يتخلصون من كل ما قد يعيق تقدّمهم نحوه، يتسابقون في الجولات كما يسموها هنا، مصريون وعراقيون وأردنيون وفلسطينيون وتونسيون وآخرون من الجزيرة العربية، عندما تدخل بينهم تكتشف حياة أخرى كل ما فيها أنهم يسعون للموت في كل أرض حطوا بها، حياتهم نذروها لله الواحد القهار كما يقولون.

الرجل الذي أحضرني راكباً على دراجة نارية يتقدمني ويطلب مني أن أتبعه بهدوء، خطوات سريعة عاجلة انشغلت خلالها بتمعّن الأشياء والوجوه بينما كان يلقي السلام على كل من يصادفه.. قبل أن أدخل إلى البناء ألاحظ وجود عبارات ملطّخة بالسواد، تكاد تكون ملغية تماماً، ضاعت حروفها كما الشمس بين الغيوم لتظهر عبارات جديدة مكانها..

أرحل إلى ما قبل عام 2000 حين كنت قد أمضيت سنوات دراستي في مدارس تشبه هذه المدرسة إلى حدّ بعيد، حيث اعتلت جدرانها شعارات تؤكد على الأمة الواحدة والتضامن العربي، والتكامل الاشتراكي، والتصدي لعصابة الإخوان المسلمين العميلة، أقسمنا مراراً في ساحات تشبه هذه الساحة على صون الوطن وتمثّل شعاراته المكتوبة ومنطلقاته النظرية والفكرية، قرأنا أن إنسانية الإنسان هي أغلى ما يملك، وأن الشباب هم عدة المستقبل وعنوانه، وأن الإمبريالية الغربية تهدف دوماً لتهديم حضارتنا وإلغاء وجودنا، وأن العرق المسال وقت التدريب سيحفظ الوطن عند الصعاب، وأن الولاء للوطن من الأديان، وأن الإقطاع سرق خيرات أرضنا، والرأسمالية استولت على حقوقنا، وأن الأمة قوتها في وحدتها وضعفها في تفرقها، وأن الأنظمة المتهودة مع إسرائيل هي أنظمة رجعية، وأن النظام

الجمهوري أفضل من الملكي، والديمقراطية تصنعها الشعوب، والدولة ملك للجميع، وأن الدين لله والوطن للجميع..

شعارات أخرى ألغت سابقتها، فأهمس لذاتي وأنا أعبر الباب الحديدي الداخلي أن الشعارات الجميلة تخفي وراءها دوماً أفعالاً لا ترقى لها..

ممر طويل تتوزع على جانبيه صفوف لطلاب اختفت صرخاتهم وضحكاتهم وأقلامهم وحقائبهم وأنفاسهم من المكان، بقايا مقاعد خشبية احتفظت بشقاوات لأولاد وبنات هجروهن منذ زمن، أكاد أسمع بكاء الخشب على الراحلين، صور رئيس البلاد منثورة بغير اتفاق على الأرض ممزقة كما لم تكن، تستوقفني وأنا أعبر برفقته الممر الطويل كرتونة ضمن لوح زجاجي لم ينكسر، وقفت أتأملها لأدرك فوراً أنها مجلة حائط أنجزها طلاب لم يعودوا هنا، رائحة المكان كما لم تكن، كل شيء قد تغيّر، ثمة سطو مسلّح على ذاكرته وعنوانه وألوانه، يحدث أحياناً لمائة متر أو أقل أن تستوعب مشاهد بحجم العمر كله، فما انقضى من عمر في مثل هذه المدارس يعود لأركض في ممر يطابق هذا الممر، وأدخل غرفاً لم تكن صفّي لأرى فتاة الحي الجميلة ولأدعو أطفالاً مثلي إلى النزال بعد انتهاء الدوام، لأهرب من معلّم يقسم أن يذبحني لو أمسك بي لحظتها، لأحفر في ذلك السور- الذي حمل الشعارات طويلاً- حفراً تساعدني على تسلّقه حين نتفق على الهروب، لذاك الشاب الذي أصبحته فيما بعد حين ذهبت للمدرسة بقصد التدريس لمدة ثلاثة أشهر، فكنت أخرج في الفرصة بين درسين من غرفة الإدارة، فأدخّن سيجارة أرفض تشغيلها داخل الغرفة لأن هناك أشخاصاً من أساتذتي داخلها، إنها ثقافة العيب التي تتمتع بها شعوبنا!!

لا يمكن أن تزور مدرسة مهما كان عمرك دون أن تمر عليك أيامك في مدرسة تشابهها.

يدخل أمامي ويشير إلي بالدخول لأجد نفسي أمام رجل في نهاية الأربعينات من عمره، تمتد ذقنه ما يقارب سبعة سنتيمترات أدنى وجهه، علامة السجود فوق محيّاه، يرتدي اللباس الأفغاني كاملاً، يجلس خلف طاولة صغيرة وفوق رأسه علم أسود مكتوب عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، أدركت فوراً أني أقف أمام رجل يتمتع بالسلطة المطلقة على كل أولئك الجالسين في الخارج، ما إن رآني حتى بادر ومدّ يده لمصافحتي.. ويبدأ الحديث كما كل الأحاديث الطبيعية التي تبدأ بالسؤال عن الرحلة ومشاقّها، ثم التطرّق للطقس الذي أتى بارداً هذا العام قبل أوانه، فأنتبه فوراً أن لهجته ليست سورية، فأسأله عن بلاده ليقول لي:

- أخوك أبو سالم.. أمير حلب.. من الجزيرة..
- الجزيرة السورية؟؟
- لأ.. لأ.. هداك الله أنا من جزيرة العرب!!

سيكون تعبير جزيرة العرب كافياً أمام كل من أقابلهم من الخليج العربي واليمن، فهم يرفضون الاعتراف بالحدود في الأرض المقدسة..

- حدّثني عن نفسك أبا سالم..

يهرب من سؤالي ليطرح سؤالاً عن أبي حسام وأخباره، وما الذي دفعني لأزورهم.

بعد أيام سأكتشف أن في حياته ألغازاً كثيرة وحلقات مفقودة، صرت جازماً أن هذا الرجل صندوق أسود متحرك لما يحمله من الأسرار والقصص

المثيرة التي يرفض أن يبوح بها، يفاجئني حين يطلب مني أن نذهب إلى الطابق الثاني حيث يوجد سجناء يريدون مبايعته البيعة العامة، فأمشي بجواره وأقف خلفه حين يصافحونه جميعاً ليقولوا له:

"أبايعك على السمع والطاعة، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهلَه، وأن نقول أو نقوم بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم، أبايعك على القتال تحت إمرتك حتى إسقاط بشار الأسد".

الفصل الخامس

"اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

بهذه الآية الكريمة اختتم أبوزينب التونسي اليوم الأخير من الدورة الشرعية التي أقامها التنظيم لبعض المنتسبين الجدد، كان خلالها يحضهم على البيعة والالتزام بشرع الله ورسوله الكريم من خلال بعض الحصص المتتالية التي تنوعت بين الفقه والحديث والتلاوة وأساليب الحياة.انتبهت وقتها أن الرجال هنا يقسمون إلى صنفين: الأول يسمى الأنصار، وهم من أبناء المدن السورية الذين انضووا للقتال تحت راية الجبهة، والثاني هم المهاجرين الذين أتوا من كل بقاع الأرض بحثاً عن درجة الشهادة على أرض سوريا.

كانت الدورات العقائدية أوالشرعية بمثابة بوابة العبور للمراحل التي تليها وصولاً للبيعة وحمل السلاح، لا نوم هنا، كل شيء يخضع للأمير حتى

النوم، كلما هممت بإشعال سيجارة انهالت عليّ النصائح والدعوات كي أترك هذه المعصية، وكي أخلّص نفسي من كل هذا العناء الذي فشلت به أمي قبلهم بسنوات طويلة. كنت أتجه إلى السطح حيث يتمركز الحرّاس، وأنزوي لتدخين السيجارة بتلذذ الهارب من أبيه، مفكّراً بتلك الأرض والمباني وسيف الدولة وصلاح الدين الذي حملت اسمه إحدى الضواحي التي مررت عليها قبل قدومي منذ يومين.

ثلاثة أيام وكل شيء بانتظام، الحياة تعادل لحظة الانطلاق إلى الخط الأول الذي يعادل كل الوطن، فما إن تنطلق رصاصة في أي نقطه جغرافية حتى يتحوّل المكان كله إلى جبهة مفتوحة الجوانب يحاصرها الموت والمجنزرات العسكرية، ثلاثة أيام ولا تغيير سوى أنباء الجبهات المفتوحة، ومحاولات مني لاختراق الصمت الذي يطبق ذاته على أشخاص جاؤوا من وادي النيل والمغرب والجزيرة العربية وبلاد الشيشان..

الكل يستيقظ ها هنا قبل مطلع الفجربساعة فمنهم من يغتسل وآخر يتوضأ ويبدأ النهار، يتحدثون عن أمة إسلامية، شعرت للحظة أنهم يتحدثون عن فكرة منسية، يبدأ نهارهم بالحلم البعيد عن إقامة الإمارة، وتمر ساعات التدريب والتدارس حتى المساء حيث يتم تبديل الحراسات وتحديد واجبات الغد، خلال الأيام الماضية لم يسمحوا لي بالتصوير أبداً فقط كنت أراقب كيف يتحركون، أفعالهم، ابتساماتهم، إيثارهم غيرهم، احتضانهم فكرة الموت، استعدادهم لدفع أرواحهم في سبيل فكرة واحدة، لا أنكر أن هناك محبة وقعت مني لكثير منهم، بينما كنت أشفق على كثيرين آخرين..

محمد واحد من الذين أثاروا شفقتي، عمره لا يتجاوز السبعة عشر عاماً، جاء إلى هنا بعد قدومي بيوم واحد، وهوالآن يخضع للدورة العقائدية مع آخرين، قال لي إنه جرّب معظم الكتائب حتى وصل إلى هنا، فأسأله عن حياته ليروي لي، وباعتباره جديداً هنا لم يكن قد تعلّق بالسماء بذلك الشكل الذي رأيته من الآخرين..

طالب في الثانوية أنا، مع انطلاقة الثورة بدأت بالعمل الإعلامي لتصوير المظاهرات وادارة التنسيقيات، وما إن دخل العمل المسلّح حتى كنت حاملاً للسلاح، بكيت أصدقائي الذين قضوا وارتقوا خلال المواجهات، رأيت التخاذل والتآمر حتى تركت كل من حاربت معهم وعدت إلى بيت أهلي..

- لماذا؟؟

- يا رجل تخيّل أن قائد كتيبة يرفض دخول المعركة إلا بعد الاتفاق على توزيع الغنائم، قادة آخرون كانوا على استعداد لحرق دباباتهم على أن يزجوا بها في المواجهات، جماعات ثالثة قامت بتشكيل ألوية للسرقة والتشليح على الطرقات بعد أن تم رفض انتسابهم لاعتبارات شخصية من قادة الكتائب أوهيئتها الشرعية..

- معقول؟؟

- وأكثر.. والله لدي قصص لورويتها لترك الجميع الحرب وباشروا بالاقتتال بعضهم مع بعض، محاربون يتركون المعركة لأن الكتيبة الفلانية دخلت في المواجهة دون تنسيق ليتم إبادتها عن بكرة أبيها!!

كان حديثه ارتجافاً كنبضات القلب بين المعنى والهذيان، كالأنين حين يصبح علامة فارقة للحياة، كالألم بعد عملية جراحية صعبة، رسم صوراً عدة لأطفال مات ذووهموبقوا أياماً بلا مأوى، لامرأة ماتت في الطريق إلى بيت زوجها الذي لم تدخله بعد، لأهله الذين قال لهم الجيش التزموا المسجد كلكم واتركوا لنا الحي كي نفتّشه، كل من في الحي ذهب إلى الجامع الكبير بعد أن قالوا لهم أنتم هنا في مأمن من الموت، تجمعوا رجالاً ونساءً وشباباً وصبايا وأطفالاً، نصف ساعة كاملة وتأكد الضابط أن لا أحد في البيوت فأمر القاذفات بتوجيه نيرانها إلى الجامع ليتم تدميره بالكامل فوق رؤوسهم، لتختلط صرخات التكبير مع الموت، مع أوراق المصاحف وآيات القرآن، قصص عائلات دفنت في الجامع، حكايات للحب والنسيان ماتت هناك، لم يخرج أحد من تحت الدمار ليعاتب الضابط المخادع.

محمد عاش على أطراف الموت طيلة عامين متتاليين، إلا أن كل جولاته كانت آمنة حيث كتب الله أن يكون مصيره في المواجهة الأولى بعد أن أنهى الدورة العقائدية، وبايع الأمير للقتال تحت امرته حتى قيام الدولة الإسلامية وإحياء الخلافة.

هنا تعتاد على الموت حتى تشعر به جزءاً من جسدك قدياًكل بعضه دون أن تغزو، فيأتيك وأنت جالس تحتسي الشاي، أووأنت تستعد للخروج، أووأنت تسقي نباتات اشتاقت طعم الماء، هنا كل شيء يسير بتخطيط ودون تخطيط وإياك أن تخالف، أن تخالف يعني أن تبقى وحيداً دون أرض أوسماء

كحال بعض السجناء في غرف معزولة في الطابق الثاني، حيث كانوا منذ أيام أحد العناصر الفاعلين، ثم أتت شكاوى متتابعة عليهم حيث دخلوا بيوتاً دون أن يستأذنوا، استولوا على غنائم المعركة قبل أن يقسّمها الأمير، ومنهم من أساء التصرّف في الدورة العقائدية، أوفي أوقات الراحة ضمن المعسكر، هؤلاء السجناء ليسوا مجرمين، فقط هم خالفوا الأوامر وعقوبتهم هي التعزير أوالسجن حتى يتوبوا، بينما على الطرف المقابل لهم، هناك سجناء من عناصر الجيش وضباطه الذين تم أسرهم خلال المواجهات.

سأستخدم لفظ الدولة على هذه المدرسة، فهي أصغر دولة في العالم الآن، سأكتشف أن في هذه الدولة هناك قائد مفدى نافذ السمع والطاعة، إلى جانبه مجلس للشورى وهيئة شرعية تعينه على أعباء الحكم وتدعم قراراته الصائبة الحكيمة، وله جيش عظيم يستعد للموت في سبيل بقاء الدولة وانتشار سطوتها، كلهم مشاريع شهادة بما فيهم القائد، ذراعه الإعلامي يكمن في غرفة صغيرة إلى جانب مكتبه تتكون من جهاز للتسجيل وعدة كاميرات للتوثيق وحواسب متجاورة، بينما على الحائط الأيمن هناك لوحة زرقاء لا يتجاوز طولها مترين وعرضها متر وتسعين سنتيمتراً، أدركت فوراً أنها (كروما)يتم استخدامها خلال تسجيل الخطابات النارية التي تتوعد الكافرين والصامتين والغرب والعرب والمجتمع الدولي.

في هذه الدولة كل شيء يسير بنظام كما عقارب الساعة، والتقصير غير مقبول مهما كان المبرر، أوقات محددة للطعام والنوم والراحة والتدريب

والحراسة والصلاة، محاولات حثيثة لتسيير أمور المدينة بالرغم من سيطرة الجيش والأمن على المناطق الرئيسة فيها.

لا شيء يستوقفني سوى ذلك الخبر الذي انتشر كالنار في الهشيم عندما بدأ الجميع بالتكبير، لقد نجح رفاقهم بتنفيذ العملية باختراق حاجز معامل الدفاع عبر تفجير سيارة مفخخة كان يستقلّها اثنان ليفتحوا الطريق أمام الكتائب الأخرى للدخول، كانت مهمتهم تقتضي في هذه العملية تقديم الدعم الأولي لتمهيد الطريق أمام الآخرين، وعندما سألت أباسالم عن عدم اقتحامهم للحاجز والسيطرة على مراكز القوى قال لي إن مخابراتهم أكدت أن المعامل لا تحتوى على غنائم تستحق العناء، ولا تمثّل ذلك الموقع الاستراتيجي الذي يخدم تمركزهم وتواجدهم، فهي مهمّة لكتائب أخرى، لذلك أمدّوهم باستشهاديين اثنين فقط قاموا بالتفجير، وخلق البلبلة تمهيداً لدخول القوات الأخرى!!

في يوم الجمعة تجهّز الجميع للصلاة، وأخذوا مواقعهم بانتظار الخطيب الذي باشر بعد الأذان إلقاء خطبته:

"الحمد لله ثمّ الحمد لله، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، الحمد لله عدد البشر والشجر وعدد حبات الرمل والماء والمطر، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد – صلى الله عليه

وسلم -حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخّرنا، وما أسررنا وما أعلنّا، أنت إلهنا لا إله إلا أنت.

اعلموا عبيد الله أنها الدنيا جيفة قذرة وطلابها كلابها، فمن اعتمد على حسبه ونسبه ذل، ومن اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على علمه ضل، ومن اعتمد على الناس كَل، ومن اعتمد على الله فلا قلّ ولا كِلّ ولا ضلّ ولا ذل.

إنّ مثلي ومثلك يا حبيبي يا رسول الله، كمَثَل أعرابي ضل الطريق في الصحراء فاهتدى بنور القمر، فنظر إليه وقال: ماذا أقول لك أيها القِمرُ؟؟أأقول جمّلك الله؟؟والله لقد جمّلك!أ أقول نوّرك الله؟؟والله لقد نوّرك!أ أقول كمّلك الله؟؟والله لقد كمّلك!

هذا حالنا يا حبيبي يا رسول الله..

أحباب الله..

نحن مرابطون هنا لأجل اعلاء راية الله الحق الواحد الجبار، نحن أقوياء لأن ليس لنا ما نخسره فحياتنا وهبناها لله عزّ وجل وتلك التجارة الرابحة، لقد كنت قلقاً خلال ما مضى فمنذ أسبوع لم يتقبّل الله شهداء منّا- وكلّ شيء بأوان- حتى استراحت النفس بالأمس حين أتانا خبر انتصار أخوتنا الذين سبقونا إلى الجنة بعد أن نجحوا بتفجير سيارة بالحاجز الذي فرض الرعب على كل ما حوله، لقد فعلوها، فلنسأل الله عزّ وجل أن يتقبل أخوينا أبا خليل التونسي من المهاجرين، وأبا عمروالسوري من الأنصار في الجنة، وأن يجمعهما مع الأنبياء والشهداء والصديقين في عليين.. الله آمين.. اللهم استجب..".

صاح الجميع:

- الله أكبر.. الله أكبر..

أنا الجالس في الصف الخامس بعد مترين من مكبّر الصوت الصغير كدت اطير من مكاني، هل تمر الحياة من تحتي أم أن الموت يجاورني ويسير معي في حقيبتي الصغيرة، أجلس في المصلّى، رحلت عن الخطيب لأعيد تركيب المشهد في مخيّلتي من جديد كي أراه كما كان بواقعه:

هما لم يكونا جائعَين حقيقة، بل توقفا ليسلّماني للرجل صاحب الدراجة حيث كان موعدهما، فأعطاهم حين أتى مفتاحاً لبيت يُقام فيه العرس الأخير لهما وبعد يوم انطلقا لتنفيذ المهمة.

السيارة البيضاء الصغيرة التي أتينا بها كانت مفخّخة، وهي التي تطايرت فيما بعد أجزاءً مبعثِرَة أشلاءً لجنود كانوا يطلِقون الموت في كل مكان، شعرت للحظة وأنا في المصلى أني اختنقت تماماً، لا أستطيع التنفّس، أستقيم بظهري وأرفع رأسي قليلاً، ثمّة دوران كبير في الأرض، كَميِّتٍ اكتشف حياته بعد أن نزل في قبره حاولت الصراخ لكن لا أحد، لا أحد، كلهم ساروا بعد أن اقتنعوا بموتي، مشيت مع أموات وركبت معهم، حاولت تذكُّر أشكالهم، تعابير وجوههم، عبثاً أسير في ممّرات مظلمة، هل لأنه شعر بدنوأجله ورحيله قال لي دون أن يجادلني عن جنسيته.. هل لأنه كان يقيناً أني لن أراه ثانية، ولن يكون لدي الوقت لأخبر أحداً عنه.. هل لأنه أراد التخلّص من وطنه فقال لي عنه.. لست أدري.. تكاد السماء تطبِقَ غيومها عليّ كي تحصِر تلك الشحنات التي تكاد تنفجر من رأسي..

أعود لما أنا عليه بينهم، أربعة صفوف أمامي وعدةٌ خلفي، ركعتان فقط وفكري ليس هنا، كان سائحاً في كل تفصيل جمعني معهما على ذاك الطريق، أشعر بداخلي ألف أفعى، تكاد يداي تمسكان السماء كي لا تنهار فوق رؤوسنا.

ما إن انتهت الصلاة حتى وزّعوا بياناً رحت أقرأ ما أتى فيه..

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله في كتابه العزيز:

"وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد"

وقال في الحديث القدسي:

"يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا" .

إلى كل من له شكوى أومظلمة أوملاحظة على أي عنصر من عناصر الدولة الإسلامية، أميراً كان أوجندياً فليأت وليدلِ بشكواه أوملاحظته إلى أقرب مقرٍ من مقرّات الدولة الإسلامية، شرط أن تكون هذه الشكوى مكتوبة بالتفصيل مع الدليل والبرهان.

ونعدكم بإذن الله عزّ وجل أننا سنحاسب كلّ من ثبتت عليه أيّ مخالفة، وسيتم تحويله إلى المحكمة الشرعية في الدولة الإسلامية.

أمير إمارة حلب

بعد هذا التعميم الذي تم لصقه وتوزيعه في أغلب مناطق حلب، سأشهد العديد من المحاكمات لقادة جماعات وكتائب، ولأشخاص عاديين تمت الشكوى بحقّهم من قبل المدنيين الذين ظلوا في المكان دون أن يغادروا بيوتهم، وأغلب التهم كانت تدور حول دخول البيت دون إذن صاحبه، أوانتهاك حرمة أملاك الآخرين، أحد أغرب المحاكمات كانت عندما اشتكى ميشال، مدرس التاريخ الذي يسكن في منطقة العزيزية التي يقيم بها أهلنا النصارى، على أبي اسحق الليبي الذي قام بتحطيم رأس التمثال التاريخي الموجود في ساحة سعد الله الجابري، حقيقة لم أتوقع أن يكون موقف الهيئة الشرعية أن تحكم بالتعزير على أبي اسحق!!

من المفارقات التي أجدها بينهم حرصهم على إقامة مبادئ الدين وفق مقتضى الحال، فكانوا يلجؤون إلى التعزير أوالسجن في حالة السرقة دون قطع اليد مستندين إلى القاعدة الفقهية التي تقول: "في الحروب لا تطبّق الحدود".

كانت الأحكام تتنوع بين ثلاثين أوستين أوتسعين أومائة جلدة، أوحفظ جزء من القرآن الكريم، طبعاً في حالة أسرى الجيش كانت الموازين تنقلب والحال يعود– كما شرح لي أبوسالم –إلى عدة اعتبارات، منها فحص سلاح

الأسير إذا كان ساخناً لحظة القبض عليه، وهل كان في ساحة المعركة أم أنه كان ملقياً سلاحه، مختبئاً يستغفر الله، وكل هذا لا يساوي شيئاً أمام طائفة المعتقل، عندما أخبرني بهذه المعلومة قلت له اقتباساً من أغنية زياد الرحباني:

- طائي فيي وطائي فيك..

لم يستسغها أبداً وربما لم يفهمها، فشعرت بالحرج، مرّة حاولت التدخل حين سمحوا لي بحضور تحقيق مع جندي (نصيري)، فقد انهالوا ضرباً بالأيدي والأرجل على وجهه وبطنه ورقبته انتظاراً لاعتراف قد لا يكون، تدخّلت بين المحقق والعسكري الذي كان يستغيث بالسماء، وبالأئمة الإثني عشر وبكل الأولياء والصالحين، أمام انتهاك الإنسان لا يمكن أن تقف ساكتاً، أياً كان هذا الإنسان، ربما هذه الفكرة لن ألتزم بها ثانية بعد أن انهار العسكري ليعترف بأنه قتل العشرات في دوما وحرستا والغاب وصولاً إلى حلب، حيث اغتصب ثلاث نساء كنّ مختبئات في ملجأ تابع للجامع الكبير!!

كيف يمكن لرجل أن يعتدي على امرأة في بيت من بيوت الله، جامعٌ كنيسةٌ لا يهم، ألا يفكّر بذلك النور الهابط إلى الأرض من السماء أم أن شهوة النشوة بفعل الحبوب الزرقاء، التي اعترف أن الضباط كانوا يحرصون على اعطائها للعناصر كل يوم، كانت أقوى من أي وازع، أفكّر لحظتها أن العدالة ما وُجِدَت على هذه الأرض إلا حمايةً للظالمين حين انبرى أحدهم

طالباً سجنه وإذلاله انطلاقاً من مبدأ العدالة وتطبيقها بينما كان الحكم النهائي هو الإعدام بالسيف!!

أجلس مستنداً إلى حائط حجري في ساحة المدرسة وأصوات الأطفال الذين سكنوها فترة ثم رحلوا تعود أمامي، ذاكرة رجال ونساء تفرقوا في أصقاع الأرض منذ عشرات السنين بعد أن مرّوا بهذه المدرسة أطفالاً، رجالٌ لم يكونوا هنا أصلاً، ونساء لم يمررن بهذا البناء ومع ذلك صورهم تأتيني مع نسمات الهواء التي تعبر بين الحين والآخر، بينما انشغل ثلاثة أشخاص بفك وتركيب سلاح جديد حصلوا عليه خلال توزيع الغنائم الأخيرة، وصورة العسكري الذي نفّذوا به حكم الاعدام فجر اليوم تسيطر على ذهني، بينما هم يتحركون ويذهبون ويمشون دون أن يعنيهم وجود الموت، فأهرب من هذا الواقع لأقتحم حديثاً مع جيراني الجالسين، فأبدأ أحدّثهم عن العقوبات القاسية التي استخدمتها الشعوب عبر التاريخ تجاه الإنسان، فأحكي لهم عن السلق حتى الموت، وسلخ الجلد، ونزع الأحشاء، والصلب، والخوزقة، والسحق تحت أقدام الفيل، والإعدام بالحرق، وتقطيع الأطراف، وحبس الجاني بإطارات مشتعلة، وترك الحيوانات المفترسة بعد تجويعها لتنهش في جسده دون رحمة. وبعد أن انتهيت قال لي أحدهم وكان من الأنصار:

- ألا ترى يا أستاذ كم الهيئة الشرعية رحيمة بالمجرمين، فحكم الإعدام بالسيف لا يتعدى بضع ثوان فقط ينتهي فيها كل شيء؟!

أتركهم وهم يضحكون، بينما تلمع في عقلي فكرة عن فلسفة الخطيئة وانتقالها من جيل الى جيل، فالخطيئة ربما كالثأر تماماً يحملها الابن عن والده،

والوالد عن جده، والجد من أبيه الأول لتصل الى أصغر الأحفاد عبر جسور من الأجيال كما اللباس تماماً يصغر ويكبر بحجم عمر الرجل ومكانته الاجتماعية والاقتصادية.

لا شيء يهم هنا طالما أن الحياة تسير بالساعات وربما بالدقائق، فكل واحد فيهم مستعد للرحيل في أي لحظة، لا شيء يربطه بهذه الدنيا بعد أن تخلّص من كل المفاصل ووجّه عيونه صوب الحلم، غير الموت هناك قاطع مشترك آخر عرفته متأخراً حين سألت بعضاً منهم عن مكانة سوريا لديه أوماذا تعنيه سوريا له؟؟إجاباتهم كلها كانت تدور في فلك واحد، اوتنبع من منبع واحد هوأن سوريا الخطوة الأولى نحوالدولة القوية التي تحتكم للخلافة الإسلامية!!

جلبةٌ كبيرة وأصوات مختلفة اللهجات تبدأ عند الباب.. لقد سيطر الجيش على المراكز القريبة من المدرسة، حالة من الفوضى جعلتني أنتفض من مكاني، الكل يركض باتجاه سلاحه بينما خرج أبوسالم حاملاً بيده بعض الأوراق إلى ساحة المدرسة وطلب اجتماعاً عاجلاً للجميع..

دقائق ونتحلّق جميعاً حوله، حيث جلس على مقعد خشبي كان لطالب في هذه المدرسة، نشر مخططاً للمكان وبدأ بالحديث:

- لقد أفاد المراقبون للمكان أن العصابة الكافرة سيطرت على بعض المناطق الحساسة حولنا، لذلك أصبح وجودنا هنا في خطر، علينا أن نصبر ونثبت ونواجه، فحلمنا صار قريباً، إنها الشهادة أوالنصر، لا تتخاذلوا، سأشرح الآن خطة المواجهة، كتيبة أبيالقعقاع ستقوم بالتغطية على الهجوم المضاد الذي ستقوم به، كتيبة الأحفاد، قاذفي الآر بي جي (b7) سيتمركزون

على البناية المقابلة للمدرسة، بينما ستقوم سيارات الدفع الرباعي بتحميل قاذفي البي كي سي إلى أول الشوارع الفرعية الثلاثة.

كان يشير بسبابته اليمنى إلى الطرقات، بينما كنت أتابع قلوباً رسمها عشاق صغار على خشبة المقعد!!

بدأ توزيع السلاح، وتم تزويد العناصر كافة بأنواع المتفجرات المختلفة، اتجهت لفوري إلى أبي سالم أمام الجميع وتجرأت على السؤال:

- بالنسبة للسجناء في الأعلى.. ماذا ستفعلون بهم؟؟
- من كان منّا فأعطوه سلاحاً، ومن كان أسيراً فاقتلوه مكانه..

حياة الإنسان هنا تساوي مكانه الذي يقف فيه، حاولت الاعتراض فأشار لي بالصمت وإلا.. ربما كان واضحاً في تهديده، لكني آثرت أن أعتبر ذلك طلباً بالصمت وعدم التدخل في شؤون الجماعة، أنصار ومهاجرين كانوا يتحدثون بين بعضهم عن الحور العين والجنّات التي تنتظرهم هذا المساء، عن قائمة الأهل والحباب الذين سيشفعون لها، عن اشتياقهم للقيا من سبقهم من الأخوة والمجاهدين، تحدّثوا عن كل شيء إلا المواجهة والحرب التي ستطحن الجميع بعد قليل.

بدأت الكتائب بالتحرك، رفضت حمل السلاح، بطبعي أكره السلاح، لا أطيقه فرائحته تطرد الرحمة من المكان الذي تهبط فيه، أصوات إطلاق النار على من تبقى من السجناء تثير حفيظتي التي يقطعها قدوم سيارات بيك آب

من نوع تويوتا دبل كبين بيضاء اللون، تحمل أرقاماً خضراً في دلالة تبعيتها لأجهزة الدولة، حيث يقودها شباب من الجبهة، وما هي إلا دقائق حتى انطلق الجميع إلى خطوط النار لصد الهجوم، فيما بقي أبوسالم وبعض الأشخاص الآخرين، وقتها اتخذت قراراً بالمضي لكن إلى أين؟؟لا مكان أعرفه لأذهب إليه، ولا أهل لي هنا ولا معارف، فهل يحدث أن يصبح السوري غريباً عن مدنه السورية، أنا السوري الذي تعاملت مراراً مع مدني على أنها عذراء لم يطمثها رجل، هل جاء الوقت كي أتقبّل فكرة سطوة الرجل عليها؟ربما كانت كعذراء أرادت أن تثبت لحبيبها الأوحد أنها عذراء، فسمحت له بممارسة الجنس معها ليفضّ غشاء بكارتها، فيقتنع بأنها عذراء من قبل، وحيداً لا شيء معي إلا حقيبتي الصغيرة وأصوات القصف تحاصرني، شوارع منكوبة وسيارات محمّلة بالموت من كل اتجاه تطوف وتجوب، يطلبون مني عدم المرور من الشارع المقابل لأن قوات الجيش متمركزة في آخره، والشارع التالي يسيطر عليه قناص، بينما يحذروني من دخول حارة مجاورة لأن الاشتباكات فيها طاحنة...

أعبر الطريق تلوالطريق، والغريب لا يعرف أي أرض تقلّه وأي سماء تظلّه، أنظر إلى السماء باحثاً عن باب إليها، إلى الغيوم الهاربة من وسخ الدخان المنبعث من الطائرات والقنابل ومن أنوف بشر أعماهم الحقد، إلى العصافير التي أعلنت الرحيل إلى منافيها البعيدة مثل أغلب بني الإنسان، صارت المدينة علبة كبريت صغيرة وأنا بها كمئات أعواد الثقاب، أحاول أن أتذكّر لحظات الهدوء التي مرّت في حياتي هارباً من موت طائشصار يوزّع

هداياه على المارين، سواء حملوا السلاح أم لم يحملوه، لا أصدّق الموت أبداً، فطالما كذب عليّ حين اختطف أعزاء كنت انتظرهم كي تستمر مسيرة الحياة بهم، سرقهم من غدي الباقي، وتركني وحيداً كحصان ظلّ منفرداً في حلبة السباق كي يفوز وحيداً، وليتوّج وحيداً ويعلن الانتصار وحيداً..

اطارات محترقة في كل مكان، النار تأكل الأحجار والتاريخ، لقد هرب سيف الدولة والمتنبي وحبيبته خولة وابن خالويه، ووقع أبوفراس في الأسر مرة ثالثة، لا شيء يوحي بالحياة في هذه الشوارع، أنظر إلى السماء، أبحث عن الله، أستنجد به، أمدّ يدي إليه، لن يخيّبني، طالما اختبرت علاقتي بالله، دائماً كان عند حسن ظني، طمأنينة تسكنني وسط الخراب، آتيه في عوالم مجهولة، أين اختفت مقامات الغناء والقدود الحلبية، دهاليز سريّة معتمة مظلمة بعد أن غادرت الكهرباء هذه الأحياء منذ أيام؟

اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم، لمعت في فكري هذه الجملة كغريق تعلّق بقشة ستوصله إلى البيت المعمور عند سدرة المنتهى، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم، صرت أكررها بسرعة كلما تسارع القذف والقصف، ترتفع نبرتي كلما علا الصوت وتخبو كلما خبا، كانت طوق نجاتي من هذا المستنقع الذي وقعت به، وكدت أغرق لولا ذلك الرجل الذي ظهر فجأة من علو ثلاثة طوابق صارخاً بي:

- أدخل إلى البناية... أدخل بسرعة...

الفصل السادس

حماه – المطار العسكري – مفرزة المخابرات الجوية.

يا ولدي:

في قرية نائية بعيدة كما السماء، كان الرجل الجبار يسيطر على الناس جميعاً، وكان الآباءبدورهميزرعون في أولادهم فكرة الخوف من هذا الرجل، ومن ثم كانت فكرة الخوف تنتقل بالوراثة بين كل الأجيال، حتى أتى إلى القرية أناس غرباء لم يحملوا فكرة الخوف، فواجهوا الرجل وقضوا علية تماماً، في شبابي حاولت أن أجرب ذلك فخرجت في رحلة صيد وكان معنا عمّك، يومها اصطدنا ضبعاً متوسّط الحجم والعمر، فوضعته في قفص كبير، وربطت الى القفصنعجة كبيرة الحجم صحيحة الجسد، وبعد أيام من ربطها بدت عليها أثار المرض وماتت، ليس لأن الضبع افترسها، أبداً بل لأنها حملت في قلبها فكرة الموت في كل لحظة نتيجة وجود الضبع في محيطها.

هل فهمت الآن قصد كلامي حين قلت إن الإنسان يصنع أعماله من خلال أفكاره؟ ونحن– يا بني–في كل حياتنا بنينا عالمنا على فكرة واحدة، أننا أضعف وأدنى ولا نملك قضية نحارب من أجلها..

كنت أستمع إليه وأبحِرُ في معانيه دون أن أعلّق أوأقاطعه حين بدأ يتحدّث عن صناعة الألقاب في عالمنا العربي، متقاطعاً مع الكواكبي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد حين قال:

" إذا أردتَ أن تعرفَ تاريخ الاستبداد في أية أمة، عليك أن تغوص في لغتها، فإذا كانت تغصُّ بألفاظ الفخامة والجلالة والسمو، فاعلم أن تاريخها في الاستبداد تاريخ عميق الجذور".

بعيدٌ أنا الآن عن شمال الشام ما يقارب **215** كم، وعن جنوب حلب أكثر من **130** كم، أركب في سيارة تشبه الزيل العسكرية التي ركبتها حين اقتادوني من أوتوستراد حمص دمشق إلى المخابرات الجوية على أطراف حمص، مكبّلاً وبجواري العشرات الذين تم اعتقالهم دون أي سبب فقط لأنهم تواجدوا في بيوتهم خلال المداهمات الأخيرة، كنت قد وصلت إلى ريف حماه الشمالي منذ عشرة أيام، وتم اعتقالي هناك مع المئات من الرجال الآخرين، خلال الرحلة من اللطامنة إلى حماه كنّا نتساءل، بصوت أقرب إلى الهمس، عن وجهتنا التي نحن ماضون بها برفقة البدلة العسكرية والخوذة الحديدية والسلاح الروسي، لا جواباً شافياً، نقطع أسباب الحياة حين نعبر بالقرب من جبل زين العابدين على الطريق الدولي، فتعود كل الصور الأولى حين عبرت باتجاه واحد، والاتجاه الآخر كان سرب الدبابات يسير به دون رادع لإعادة الأمن إلى الوطن الكبير!!

خطوط النار لم تهدأ بعد، وما تتركه صواريخ أرض أرض في السماء كان ضمن المدى المجدي لأعيننا، صرت أخمّن أين ستكون وجهة هذه الصواريخ، وعلى أي البيوت ستقع، وكم من الأرواح ستدفع إلى السماء، وكم من المواطنين سينالون الأمان الأبدي بسببها!!ربما حلفايا، وربما شيزر، وربما طيبة الإمام، وربما اللطامنة، وربما كفر زيتا أومورك، في الحقيقة تتالت تلك المدن أمام ناظري في السراب بهياكل أبنائها وبيوتها وركام الخنادق وبقايا القذائف والقبور التي حفرها أهلها بالعشرات انتظاراً للموت..

صوت هامس بالقرب من أذني يقول: رح ياخدونا إلى المخابرات الجوية بحمص!!

يرد آخر: لا لا أعتقد.. من المؤكد رح ياخدونا إلى أمن الدولة بحماه!!

فيهمس ثالث: لا لا.. عم ياخدوالعالم على الأمن العسكري!!

أمام تلك الصواريخ التي تنطلق كيفما شاء لها العسكري الواقف خلفها لم يكن يهمني في الحقيقة أين أذهب برفقتهم، الطريق العام يمتد وبدأت تتلاشى فرص الذهاب إلى حمص بعد أن قطعت السيارة التحويلة التي تتعرّج بالطريق شرق حماه دون أن تدخلها باتجاه حمص عبر جسر المزارب، فأقول في خاطري: هم لا يؤمنون الجانب فربما سيعبرون بنا المدينة لأنها أكثر أمناً عبر شارع العِلمين، ومنها إلى حمص.. ربما..

ها هي حماه أمامنا، أدخلها مكبّلاً للمرة الأولى، كم هي صعبة أن تدخل مسقط رأسك مكبّلاً دون أن تقوى على فعل شيء، إنه طعم الظلم، أن تصمت هوالخيار السليم، دوار سباهي، أوما بات يعرف فيما بعد بدوار الشهداء، أمامنا، تنحرف السيارة يميناً، ونتجه إلى البرناوي حيث تظهر حماه كعروس تنتظر فارسها، عبر الطريق تمتد المشاهد وصولاً إلى الجهة الغربية من حماه.. إذاً إنه المطار العسكري..

أشجار وارفة الظلال باسقة إلى السماء- كشموخ ابن هذه البلاد – تحيط بالبوابة الرئيسة للمطار الذي يمتد عبر ما يقارب أربعة كيلومترات ليشكّل حاجزاً فاصلاً بين المدينة والريف الغربي لها، تتوقفالسيارة عند الحاجز العسكري قرب جامع بلال بن رباح الحبشي لتدخل بعدها إلى بوابة المطار، يستوقفني الآن اسم بلال الحبشي ذلك الصحابي الذي عانى ما عاناه من بطش عتاولة الجاهلية من قريش، فافتداه أبوبكر الصديق ليعتِقَه، وليصبح بلال بعد ذلك مؤذن الإسلام الأول، أوكما قال لي النابلسي يوماً: لقد كان بلال مديراً عامة لهيئة الإذاعة الأولى في الإسلام!!

أيّ قدر ذلك الذي جاء بي مرة أخرى لأمشي جنب اسم بلال، الذي يملك من الدلالة ما يكفي لتذكّر أقسى المشاهد اللا إنسانية التي قد تخطر ببال بشر في ذلك الزمان، هل هي إشارة لما قد يحدث بعد؟؟ربما، وربما أني أحمّل الأشياء أكثر مما تحتمل، رائحة الأشجار توقظني، ففيها من جذوري ومن ماء تشكّلت منه أضلعي، لا يغادرني العاصي ولا أغادره مهما شربت

من مياه العالم، لرائحة الأشجار في كل المدن- خلا مدن الملح- نكهة تستنهض تاريخ المدينة النائم، فلكل مدينة مررت بها وجهان: الأول يصنعه السياسيون ويكتبه التائهون المنافقون، والثاني نائم بين صفوف المقهورين يتناقلوه شفاهياً ليغدوكالأساطير، كالعشق الحرام، كالموت بالطاعون، لايظهر إلا ليقتل أويسيطر على كل ما كان، وربما نحن في هذه السيارة العسكرية كنا نكتب فصلاً جديداً من تاريخ المقهورين على هذه الأرض، فيارب المقهورين والضعفاء متى تنتهي هذه الغيمة التي حلّت بنا..يصيح أحدهم..

- حسبي الله ونعم الوكيل..
- نعم المولى ونعم النصير..
- يا الله لا تتركنا.. نحن عبيدك وأبناء عبيدك..
- بجاه سيدنا محمد يا رب..

أتمتم في سرّي:

- اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم..

للبنادق صوت غريب حين تصطدم بالعظام، كنت أعجز عن تخيّل ذلك الصوت مراراً، رغم محاولاتي المتكررة حين كانت تتحدث لي رفقة عن حاجز حوارة، شرقي مدينة نابلس حيث كان يتفنّن الصهاينة بضرب الواقفين على الحاجز، صرت أقتنع أكثر أن التاريخ يعيد مواقعه بأشخاص

مختلفين وبأزمنة مختلفة، البنادق في هذه الساحة كانت تنزل كحبات البرَد على عظامنا نحن النازلين على أكفّ القدر إلى نوبة الاستقبال التي اصطف فيها جنود عن اليمين واليسار، أغلبنا صار بين الأرجل، ولا هوادة في الضرب، ولا وقت ينتظر كي ترفع معتقلاً عن الأرض، وماهي إلا نصف ساعة تقريباً حتى جمعونا كالأغنام وقوفاً على الاسمنت، وخلفنا تربض مروحيات كانت قد أنهت رحلتها الدفاعية عن أمن الوطن بينما استعدت أخرى للانطلاق.

رجال منزوعو الحاضر، فقط بذاكرة وماض، وقوفاً أمام الزي العسكري الحاكم الذي أمر بسلطة الواقع كل المصلوبين أن ينزعوا ثيابهم كاملة، تململ الجميع، لكن حين مرّت رصاصات فوق الرؤوس صارت الأيدي تتطاير باتجاه الأزرار لترحل كل الثياب دفعة واحدة خلال أقل من 30 ثانية، ومن احتفظ بشيء يستر عورته بين السرة والركبة كانت الرصاصات الواقعة بين قدميه كفيلة لجعله يقدِم على خلع ما تبقى إلا ذاكرته التي تسجّل كل ما يدور، لم يكن بإمكاننا خلع عيوننا التي ترى سوءات الآخرين، فأغلقت الغيوم عيون الشمس التي توارت خلف غربال كي لا ترى!!

تحدّث لي زياد مرّات ومرّات عن حفلات التعرية في السجون العراقية والأردنية، دائماً من سمع ليس كمن يرى، كنا نحن أبناء الأرض والعسكر عابرين، هكذا أخبرني التراب منذ زمن طويل، شلال الدم لا يبقى، والقيد لا يبقى والألم لا يبقى، واقفاً عارياً كما الآخرين فأهرب إلى منجاي الوحيد وطوق نجاتي:

- اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم..

ما إن ذكرت هذه الجملة حتى انتابتني رعشة الأمان، سكينة رهيبة سيطرت على جسدي من أخمص قدميّ حتى أعلى شعري لأرى سيدنا عمر بن الخطاب، يروح ويأتي بيننا، يربت على أكتاف المعتقلين الواقفين، يصرخ فيهم:

- سحقاً لمن انتصر في الحرب وخسر أخلاقه..
- "ولاتهنواولاتحزنواوأنتمالأعلونإنكنتممؤمنينإنيمسسكمقرحفقدمسَّالقومقرحمثلهوتلكالأيامنداولهابينالناسوليعلماللهالذينآمنواويتخذمنكمشهداءواللهلايحبالظالمين".

مع أوّل السباب والشتائم التي انهالت علينا اختفى عمر بن الخطاب لنبقى وحيدين هنا في مواجهتهم، أمامنا يحملون عصياً سوداء اللون لها ما يشبه اللجام يربطوه حول معاصمهم، وبعضهم حمل عصياً خشبية كتلك التي كان يحملها مدرسوالمرحلة الإبتدائية، بينما بدأ آخرون بتجهيز ما يعرفه السوريون بالنرابيج، أوالبرابيش اللينة التي تهوي كيفما شاء لها حاملها على من يقابله..

وسط هذا الذهول شعرت بأن السماء بدأت تقترب من الأرض التي بدورها راحت تغوص كي تبتلع الضعفاء دون سواهم، كاسراً جليد الصمت ضمن مشروع الخراب المؤكد أتى صوت كبيرهم الذي علّمهم السحر:

- انتوما تربيتوبالتمانينات، وهلق اجا الوقت المناسب حتى تتعلموالدرس منيح.. بدكن تغيروالرئيس.. الرئيس يا ولاد الشرموطة.. ما بيكفي انوحاميكن من أمريكا وإسرائيل.. زفتلكن الشوارع.. فتحلكن المدارس..عملكن بني آدمين.. والله لالعن دينكن يا عرصات.. بدكن تجيبوالاحتلال على البلد.. والله ضياعة هالبلد فيكن.. ليش آابتروحوعلى الخليج لعند معلمينكن.. يا منايك.. انزيل ولاك عرص منك الو.. انزيل على الأرض.. انبطح.. انبطح تشوف.. كس أخت اللي نفضكن عرص.. يا عراعير يا إخونجية..

- سيدي أنا من محردة!!!صاح خلفي رجل لم أره..

بنظرة حادة صارمة صاعقة حارقة، زمّ كبيرهم عينيه تحت نظارته السوداء وصاح بالعناصر:

- هاتولي هالعرص..

وقف الرجل العاري أمامه، كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً عارياً بالكامل، لست أفهم حدّ الآن كيف تفنن شعراء الحداثة بوصف جمال العري!!

- يا سيدي أنا من محردة..
- انت من محردة.. شويتقولوعن الملاعق بمحردة؟؟
- خواشيق يا سيدي... خواشيق..

- انزيل ولاك عرص..على ركبتك..

يصبح وجه الرجل العاري في مواجهة قدمي كبيرهم جاثياً على ركبتيه، متوسّلاً طالباً الرحمة ممّن لا يعرفها ولا يملكها.. وماهي إلّا لحظات حتى أطاح الكبير بقدمه بحركة مباغتة على رقبة الرجل العاري ليصطدم بالأرض كقارورة عطر انفجرت في غرفة من البللور، فأحدثت ضجيجاً قطعه صوت الكبير حين قال:

- يا عرص متعاون مع العراعير..

كانت هذه الجملة هي المفتاح الذي أطلقه الكبير لعناصره كي يبدؤوا رحلتهم فوق أجساد المعتقلين، كنا نصطف خلف بعضنا كالصلاة حين أمرونا بالانبطاح، وبوضعيتنا تلك صرنا أفقيين على الأرض، رأس الذي خلفي كان بين قدمي ورأسي يمتد بين ركبتي الذي أمامي، بحركات سريعة كانوا يعبرون فوق ظهورنا، يدوسون رؤوسنا، يضربون بكعوبهم على أسفل رقابنا، أحدهم وقف فوق ظهري تماماً وأسند ركبتيه على كتفَيّ وضرب بمقبض يده على خصيتي الذي رأسي بين ركبتيه فصاح الرجل من فرط ألمه وضرب ركبتيه برأسي حتى شعرت بأني كدت أفقد وعيي، عاد آخر بعد قليل ليغمس عصاه في شرج الذي يجاورني، كان يغمسها بقوة كمن يحاول أن يدخل مسماراً في حائط.. دماء في كل مكان، جراح تحكي ستين دقيقة من العذاب المتواصل، من الذلّ المتعمّد انتقاماً لهيبتهم التي ضاعت على طول البلاد وعرضها..

الشمس تغمِض عينيها أمام هول المشهد، والسماء توقفت عن الهبوط، لا دعاء ينفع ولا صلاة، ينهض كبيرهم عن كرسيّه ليطلب من الجميع أن يقفوا على أرجلهم.وسط ذهول من الحاضرين بدأت عملية الوقوف كسطومسلّح على الحياة بكل ما للكلمة من معنى، لم يمت أحد، كانت أرواحنا قد صدئت، وصار الموت يهرب منها حين تطلبه، لحظات وتبدأ ماكينة الحلاقة الكهربائية برسم خطوط على رؤوس المعتقلين، مترافقة مع ضربات مركّزة على الظهر والأذنين..

كانت فرصة للراحة من العقاب الجماعي، من الموت الذي بدأ ينشر غبرته على وجوه الحاضرين، صوت الماكينة هوالمسيطر على المكان، يقطعه عواء كلبٍ جاء إلى حتفه، رأيته بطرف عيني يركض من بعيد بين الحوامات، استلّ الكبير مسدسه ورمى طلقة واحدة كانت كفيلة لقتل الكلب فوراً، وصاح بالعناصر أن احضروا الكلب الميّت إلى هنا..

الماكينة الكهربائية ما زالت ترسم خطوطها على رؤوس المعتقلين، صريرها يذكّرني بكل ما هوجميل، ربما كنت أبحث عن أي لمحة تنقذني من هذا الأمر الواقع، تساؤلات واضحة تدور في مخيلتي، وحدها الأسئلة تعرف طريقها في مثل هذه المواقف!!

هل الرجولة تقتضي الصمت أم أنها تقتضي ردّ الفعل بفعل معاكس ومن ثمّ الموت المحتّم؟هل عليّ أن أقبل بمناداتي بالاسم الأول الذي قلته لهم حين اعتقلوني لأعيش في جلباب رجل آخر لا أعرف حقاً إن كان موجوداً أم لا،

إن كان مطلوباً أم لا، إن كان قاتلاً أم مقهوراً مثلنا؟هل عليّ أن أبكي أمام الأطفال الذين لم يبلغوا الرابعة عشر من العمر بعد؟هل أقول لهم من أكون كي يقتلوني وأستريح من هذا العذاب؟يحدث أحياناً أن يكون الموت راحة للأحياء من عذاب مستعِر، ما الذي جاء بي إلى هنا والكل يحلم بالخروج خلف الحدود؟هل هوقدري المكتوب عليّ في اللوح المحفوظ ومالي إلا أن أخوضه حتى النهاية؟ أن أذهب معه في طريقه حتى الثمالة، إلى أن يعصرني أوأعصره، يكسرني أوأكسره؟!

في هذه الساحة تتشابه الأقدار ويتقاطع بعضها مع بعض، لا مال يفيد ولا نسب ينقِذُ من هذا العذاب، الأطفال يبكون، ينوحون، يندبون حظاً تعيساً، ويلعنون العرب والغرب والمجتمع الدولي!!

من أين نبتت هذه الوجوه؟ومن أي ماء شربت ومن أي تراب جبِلَت؟كنت أنظر خلسة إلى وجوههم السود بلباسهم العسكري، وعصيّهم التي لم تتحول إلى أفاعي أبداً كما في قصة موسى عليه السلام، حقيقة كنت أنتظر أن تحدث معجزة فيتدخّل الله كي يرمي بيد أحدنا عصا أخرى لا تكون إلا لهدف واحد فتلقف عصيّهم جميعاً، وتفتح لنا طريقاً إلى الحياة من هذا الموت المحيط بنا، صار وجود الموت روتيناً قد يعتاده الإنسان، وقد يتمرّد عليه، لكن ما له إلا أن يقر بوجوده حين يرحل كل نصف ساعة رجلاً أوطفلاً أوامرأة وربما عائلة بكاملها، أصحاب العصيّ واللباس العسكري لا يرونا إلا موتى بهياكل أحياء، أعداء كالخطر، ساكني توابيت يتم تصنيعها في الصباح لنلبسها في المساء!!

وصل العساكر حاملين معهم الكلب المصاب بطلق ناري بعد أن أسلم الروح، وضعوه بشكل موازٍ لنا أمام كرسيّ الكبير الذي ركله بقدمه ليتأكد من أنه جيفة ميّتة، وبعدها طلب من العراة جميعاً أن يتقدموا واحداً واحداً لينهشوا من لحم الكلب!!

يا الله أين أنت من كل هذا؟!.

- واحد واحد.. اقتربوا والعرص اللي ما بياكل بقلب بدي أقوسو..

من المؤكد أنه لا يمازحنا، من المؤكد أنه لا يمازحنا، إما أن تنهش أيها العاري، أوتكون الرصاصة بانتظارك، الموت بإمكانك أن تبعده بحركة رشيقة من أسنانك فهل أنت بقادر على فعلها..

الكل جاثٍ على ركبتيه، ويبدأ الصف الأول بالتقدم، الرجل الأول في العقد السادس من العمر، يسحب جسده عبر ركبتيه وبينه وبين الكرسي كلبٌ ميّت، يشيح بنظره عن الكلب ويقول للكبير الجالس على الكرسي..

- يا عمي أنا من عمر أبوك.. الله يخليك لأولادك...

- اخراس يا كلب.. فشرت تكون متل أبي.. أبي ما بيتآمر على الدولة يا أخوالشرموطة.. وقبل أن ينطق الستيني كانت الرصاصة قد صارت في بيت النار منتظرة أمر الإطلاق، ففي هذه البلاد كل شيء بأمر!!

يصمت الرجل ويغمس وجهه في جسد الكلب، فيكبس الكبير بقدمه على رأسه حتى يخرج الستيني بقطعة لحم من الكلب والدماء تسيل على

ذقنه، وبدأ المشهد يتكرر بينما كان العناصر يستلمون كل من ينتهي من قضم حصّته من لحم الكلب فيتابعوه كي يبلعها ولا يبصقها.

من المؤكد أن هذا المشهد لن يستطيع أي ممثّل عالمي أن يؤدّيه بحرفية أولئك الذين فعلوه حقاً خوفاً من الموت، وحين جاء دوري كنت كغيري، لكني استطعت استحضار شفاه امرأة أحببتها قبل أن أدخل وجهي في لحم الكلب، فعادت رائحة شعرها إلى أنفي، فأغلقت الأبواب كلها وحبستها بينما رحت أسترجع طعم القبلة من شفتيها، فكانت فرصة أن أتذكّر حباً في لحظة ضعف وهرب من الموت القادم.

كان العراة يتلوّون على عضلاتهم، على معداتهم، على أمعائهم، يبدّلون جلودهم، وكل محاولاتهم لم تغيِّر من الواقع شيئاً، ستمرّ سنوات طويلة على هؤلاء إن ظلوا على قيد الحياة كي يتناسوا ما حدث اليوم ولن ينسوا..

انهالوا ضرباً على الجميع، أعادوا الكرّة أكثر من مرّة، وطعم الدماء في شفتيّ اختلط مع رائحة الدم المنبعث من كل مكان.. أين أنت يا الله عمّا يحدث هنا؟؟.

الشمس بدأت بالهبوط خلف أفقها معلنة عجزها عن فعل أيّ شيء، بوجهها الأحمر بدأت تسحب أشعتها عن المروحيات التي عادت قبل

إدخالنا إلى الغرف متوسطة الحجم، حيث تم زجّنا في مستودعات يسميها السوريون هنغارات.

الهنغارات مقسّمة إلى عدة غرف متّصلة ببعضها، منفصلة بحواجز مسبقة الصنع تمتد من الأرض إلى السقف، كل غرفة لا تتجاوز مساحتها الخمسين متراً، وضعوا فيها ما يقارب الستين معتقلاً ليكون كل معتقل مِلكاً على أقل من مترٍ، هوحرّ التصرف فيه، فإن أراد جلس وشدّ فخذيه إلى صدره، أوإن شاء قعد القرفصاء، وإن حالفه الحظ بوجود معتقل نحيل بجانبه فهوالفوز بجلوس مريح.في الحقيقة أنا أطرح عدة سيناريوهات لم تحدث أبداً، فما إن أدخلونا عبر باب الهنغار حتى انقسم الشباب إلى قسمين: الأول حمل كبار السن إلى داخل الغرفة، والثاني راح يرتّب الجميع وقوفاً، مستندين إلى الحائط الحديدي الذي بدأت برودته تنتقل تدريجياً إلى أجسادنا، وماهي إلا لحظات حتى بدأ التواصل مع الغرف الأخرى عبر صوت يشبه الفحيح!!

صار الحائط في عينيّ يمتد إلى السماء كطريق يربط التراب بالغيوم كما في الأساطير، تخترقه طائرات تفتح جدار الصوت على مصراعيه ليحدث ضجيجاً ترتعش منه ذرات الهواء، تمشي عليه أسراب النازحين واللاجئين من كل قرية ومدينة وحي، تقطعه مسعة أفواج الأرواح زمراً زمراً لتدخل باب الجنة الواسعة، ويرتمي على أطرافه بقايا لإنسان ظلّ عاجزاً بين الحياة والموت، فبقي بانتظار رصاصة الرحمة الأخيرة كي تُهدِيه بطاقة العبور من

الحاجز الأخير بعد الغيم، هل تكون السماء أرحم من الأرض الشاسعة؟هل السماء باتساعها الكبير تكون أكثر أماناً من هذه الجهنم التي نعيش بها؟

صمت رهيب يخيّم على المكان، وكأن كل رجل رحل في مسيرته التي أوصلته إلى هنا.كنت جازماً أن كل واحد فينا يتذكّر أحباباً وأصدقاءً ومشاريع مؤجلة كان يتمنى لوأنجزها قبل وصوله إلى هذا المكان، كل واحد كان يتمنى لوأعطته الحياة متّسعاً من العمر كي يبني ما بقي له من أمتار وساعات، ليعمّرها بضحكات مكتوبة وصرخات مدوّية تكسر كل الممنوع فيما مضى من عمر..

صمت رهيب يقطعه رجل كان بجانبي، في نهاية الأربعينات هو، رمى بكل ثقله على الحائط، كان قد سألني قبل قليل عن اسمي وبالطبع أجبته عن اسمي المزوّر الذي أعطيته لهم فور اعتقالي باعتباري فقدت كل أوراقي، ولا مجال ليعرفوا من أكون ليفاجئني الرجل أنه متأكدٌ من أن هذا الاسم ليس لي لأن هناك تقاطعاً بيني وبين أحد أعمامي الذي كان يعرفه تماماً، فقد تحرّك دمه (وهوتعبير دارج لدى السوريين) حين رآني، في الحقيقة لست متأكداً إن كان هذا الرجل بجانبي أصلاً أم أنه دافع البعض كي يصير بجانبي، فهول المشهد وسطوة المكان كانا أكبر من الانتباه إلى الواقف بجانبك..

- نعم هوعمي.. ولكن أرجوك لا تخبر أحداً..

أقول بهمس!!

- لا تقلق.. وهل بقي من العمر وقت كي نبوح.. تعال سأحكي لك قصة عمّا نحن فيه..

وبدأ الرجل يحكي لي قصة صيده والنعجة والضبع والقفص الكبير، وما إن أنهاها حتى صاح بأعلى صوته أن هناك ضرباً بالمطرقة في رأسه خلف أذنيه مباشرة، أمسك رأسه ومال عليّ.. لحظات وبدأ يهذي:

- أنا دايخ.. موحاسس بشي.. يا الله..
- جيبولهون.. جيبولهون..
- ساعدوني يا شباب..
- يا ربي دخيلك...

تضافرت الأيدي واقترب الرجل من صدر الغرفة، أجلسته هناك، ووقفنا ننظر إليه لينهض شاب لم يتجاوز النصف الثاني من عقده الثاني وقال:

- أنا أدرس الطب..
- تعال يا حكيم..

اقترب الطبيب الشاب من الرجل، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الدم يطفوخارجاً من أذنيه، حشرج الرجل مرتين أوثلاثة ثم أسلم الروح بعد أن رفع سبابته إلى السماء..

الفصل السابع

هل تغدوالمدينة مقبرة مفتوحة الاتجاهات تنتظر جثثاً لا تشييع لها، ولا أهل ولا أكفان، كأن الجثث صارت من معالم الشوارع، فما من زقاق إلا وقد توزعت فيه جثة أوجثتان، دماء تسيل من كل جانب، لا شيء يوقف هذا الموت، أين أنت يا الله عمّا يجري هنا؟؟

كهارب من الموت القادم من أول الشارع وآخره، أدخل إلى باب البناية التي تهدّم ربعها، أصعد السلّم الحجري درجتين أوثلاث معاً، أشعر بأن الموت ضيّعني، وربما بدأ يلعب معي لعبة الاختباء، فاذهب أيها التائه أينما شئت وسآتي بك أينما كنت!!

سآتي بك لوكانت بيننا جبال وسموات وقبائل عربية مسافرة في رحلتها التجارية، سآتي بك حتى لواختبأت في جحر الخلد، أوفي بروجٍ مشيّدة، فأنا المؤَيَّدُ بقوة الإله العظيم، لوكنت في قلب البحر أوبين الشجر، في قلب قذيفة

أورصاصة، سأسرق ما تبقى من عمرِكَ وأعطيه لآخر ينتظر، سأحمّل من تختلف معهم ألم الفقد وقت القطيعة!!

لماذا أيها الموت تهاجم كل من دبّت فيه الحياة، حتى العصافير هربت منك، القطط التي عاشت في حلب وأنجبت ووقفت لساعات على أبواب الجزارين هربت إلى مناطق أكثر أمناً، تاريخ المدينة هرب أيضاً من النيران التي تأكل كل شيء، فماذا أنا فاعل هنا بعد أن صرخ لي رجل لا أعرفه طالباً مني الدخول إلى بناية لم أدخلها من قبل!!

الدرج يمتد بي رغم خطواتي المتلاحقة، أبوابٍ مكسّرة في كل طابق، أحاول أن أختلس النظر إلى تلك البيوت الفارغة تماماً من أرواح سكنتها فيما مضى، صارت البيوت كأنها بيت واحد، فتحات في الجدران من المؤكد أنّ عاشقَين تمنيا ذات ليلة أن يفتحاها بعيداً عن أعين الوشاة، لا شيء يوحي باستمرار الحب، هل الكره والفراق من منتجات الحرب أيضاً، أتساءل وأنا أقطع آخر خمس درجات في الطابق الثاني لأرى الرجل أمامي فاتحاً باب بيته، فأستهدي بصوت طفل صغير يبكي..

أبكي فيمسكني من يدي ويدخلني..

- صلي على النبي.. صلي على النبي..

حقيقة لا أملك ما أقول أمام نبل هذا الرجل، كان كمن مدّ يده ليخرج غريقاً سحبته المياه إلى دوّامة عميقة سحيقة، كان كمن قدّم مَصلاً لمصابٍ

بالسم، كقابلة سحبت بأصابعها طفلاً من رحم امرأة دون أن تؤذيها وتؤلمها، خطواتي الأولى في البيت ككل الخطوات التي قطعتها عندما دخلت بيوت الغرباء، أقف قليلاً عند الباب ورأسي منخفض تماماً إلى الأرض، باحثاً عن مكان أخبئ به شلال الدموع الذي لم أستطع أن أحبسه عن الجريان..

يشير لي بالدخول وأصوات الانفجارات لا تهدأ على مقربة منّا.. سألته فوراً، بعد أن جلست على أريكة قديمة، لماذا صاح لي كي أدخل إلى البناية؟ابتسم وقال إنه رآني أتلطى من حائط إلى حائط، ومن رصيف إلى رصيف، أخفض رأسي هرباً من رصاصة طائشة، أوبقايا برميل نازل من السماء، فأشفق عليّ وعلى يديّ الفارغتين من السلاح، وما كان منه إلا أن ناداني..

- أنا اسمي أبونزار.. إن شئت عمّك أبونزار..
- أهلاً يا عم..

عرّفته بنفسي على عجل وصوت الطفل لم يهدأ، ثمة طفل يبكي..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذا ابن بنتي.. عمروخمس أشهر.. الله وكيلك يا عمي ما عم بعرف شوبو!!
- كل هالشي حوالينا وماعم تعرف شوبو؟؟!!

نضحك.. ربما لطرد وحشة الموت، أعطاني سيجارة رغم اكتمال القصف بكل مكان، دورة القصف لم تهدأ، ثمة موت يحاصرنا والطفل يبكي، رغم هذا دورة الحياة تعاكس دورة القصف، تتناحران كما لو أنهما في حلبة

ساموراي، لا بد من انتصار أحدهما، الموت يتقدّم في كل مكان، والطفل يزرع الحياة أينما يصل صوته!!

- أما في البناية غيرك يا عم؟؟

- لا.. الكل رحلوا من هنا منذ زمن..

يلاحظ اندهاشي، وبدون أن أسأله قال:

- أنا لا أخرج من بيتي إلا إلى القبر، اللي جاي من العمر موأكتر من اللي راح!!

- فيك الخير يا عم..

- باينتك مومن حلب؟؟

- لا..

- إنت طالب بالجامعة؟؟

- لا.. خلصت دراسة من زمان.. درست بالشام!!

- شوعم تعمل هون؟؟

- أنا صحفي..

شعرت بإرباكه، فربما لم يتوقع أن أكون صحفياً، لكنه أخفى ذلك حياءً مني، وعاد ليتابع حديثه عن حلب..

- كل السكان طلعومن بداية الأحداث بحلب.. ما ضل حدا.. شي راح على حماه، وشي على طرطوس، وشي على الشام، وشي على الخليج قبل ما يوقفوالفيزا لهنيك، واللي ما معومصرات (نقود باللهجة الحلبية) طلع على تركيا..

- طيب مين عمل بالبيوت هيك؟؟

- آآآآخ يا عمي.. لما صار الشباب ييجوعلى المنطقة لهون (يقصد المسلحين) وأخدوالمدرسة اللي بالحارة التانية، وسيطروا على المخفر اللي مواجهنا دخلوا على البناية وأخدوالطابق التاني كرمال يعملوه مركز قناص ومراقبة، وصار وقتها عدة مداهمات من الجيش والأمن، وطبعاً صار الوضع متل ما شفتووانتِ طالع لهون!!

صمت لحظة، ثم سألني كمن تذكر شيئاً مهماً للغاية:

- هل معك سلاح؟؟ حتى لوسكين؟؟

- لا أبداً..

- مومشان شي، بس لأنوبعد شوي رح ييجوالأمن والجيش متل العادة يفتشوالمكان، وبخاف يكون معك سلاح..

- صحي عمي.. كيف تاركينك هون؟؟ عفواً للسؤال..

- لا عادي عمي.. أنا ماطلعت أبداً من بيتي، واجوأكتر من مرة ولقوني قاعد بالبيت، وفتشوا هون أكتر من مرة وما لقوا شي فماعاد يهتموأبداً.. مافي غير أنا وبنتي وابنها.. أصلاً مرتي ميتة من زمان وابني نزار - الله يخليلك ولادك - شب من عمرك يمكن أوأصغر شوي، طلع مع الثوار على ريف حلب وما عدت شفتومن شي شهر، كان ييجي يطل علينا بس من شهر ما إجا، والله يا عمي كنت واقف على البلكون ناطر شوفوراجع!!. صهري استشهد أول الثورة بحمص، كان ملازم عم يخدم جيش نظامي، احتفظوفيه مع انطلاق الثورة وما سرّحوه..

صوت الطفل يعلو، وصوت الرصاص بات في الشارع المقابل للبناية، صرت اشعر به يأكل من جلدي، كان العم أبونزار بحاجة للبوح، بحاجة أن يتحدّث مع أيٍّ كان عمّا حلّ ويحلّ بالبلاد، أطلب منه أن يحضر الطفل إلى هنا، بينما يتحرّك خطوتين أوثلاث أنهض أنا من مكاني وأتجه فوراً إلى المكتبة الصغيرة على الجهة اليسرى من الصالون الكبير، كتبٌ في فقه اللغة وأخرى في الرحلات، كتاب في تاريخ الأدب وأطلس للعالم، قرآن كريم، مجلّات العربي الكويتية بأعداد مختلفة، كتبٌ في فلسفة الأخلاق!!

يأتي صوته محذّراً ألا أقترب من الشبّاك فربما تأتيني رصاصة طائشة، وببساطتي أتراجع معتبراً أن في نقطتي هذه حياتي مضمونة وسط الخراب، أحمل الطفل بين يدي، منذ زمن لم أحمل طفلاً، تصارعني نظراته وبكاءه، عجزي أمام بكائه وضعفي أمام استمراره بالحياة، أغنّي له فلا يهدأ، أصيح من حوله فأنتبه أن صوت القذائف أعلى، أطلب من جدّه ماء فيأتي الماء على عجل، أضع بعضه في فم الطفل فيهدأ قليلاً، أضعه على الكنبة الكبيرة وأخفي نفسي ثم أظهر له فجأة، أكررها مرة أخرى، يضحك الطفل، أعيدها مرّات، يضحك الطفل أكثر، ببلاهة زائدة أفعلها، أكررها، يضحك الطفل ويضحك جده وأمه تظهر من خلف الباب فتضحك أيضاً، ينضم الرجل لي، يختفي أحدنا ويظهر الآخر أمام الطفل، يضحك الطفل، يقهقه اكثر، يلعب برجليه ويديه، ثمّ نختفي كلانا ونظهر معاً، يضحك الطفل ونضحك نحن، وصوت القذائف لا يهدأ، كنّا نطرد الموت، نتوسّل رب السماء أن

يرأف بنا لأجل هذا الصغير، ويضحك الطفل ونضحك، ونختفي ونظهر، ويضحك الطفل ويهرب الموت!!

ما إن ينام الطفل حتى يهدأ الجميع، فيقول لي: نحبّ الأطفال مهما أساؤوا لنا.. تسحبنا جملته دون أن ندري إلى الحديث عن الأدب والشعر العربي والغربي وشكسبير وماركيز وايزابيل الليندي وغيفارا وطه حسين ونجيب محفوظ وابراهيم القاشوش ولوركا وغوغول وأمريكا وروسيا وإيران وإسرائيل والأردن وتركيا والجامعة العربية، نسينا الموت الدائر حولنا، فيقول لي هكذا يعيش شعبنا منذ عامين!!

أفضل طريق للحياة هوأن تتجاهل الموت وتنساه، انشغل بما شئت، بزواجٍ بطفلٍ بحبٍ بالموسيقى، اقتل الموت ولا تدع فكرة وجوده تسيطر عليكَ، التاريخ علّمنا هنا أن تصوير الفجائع والانكسارات على أنها انتصارات وتصديرها إلى الخارج أمر ممكن الحدوث، لكن من غير الممكن أن يستمر هذا التزوير!!

في المنفى لا تتوقف الغصة اطلاقاً، وفي الوطن أيضاً ثمة تقاطع مخيف بينهما، يناديك المنفى وأنت في الوطن لتكتب أجمل الأشعار فيه، ويناديك الوطن لتعود من منفاك فتبكي أطلالاً عرفتها ولم تعرفها بمنفى لم يحترم يوماً وطنك المنفي أيضاً من تاريخه، ثمة طمأنينة رهيبة سيطرت عليّ عندما قام العم أبونزار يجهّز آخر وجبة يملكها من السكّر والشاي كي نشربه، بينما

خلد الطفل وأمه رغم تشابه الضجيج بين حديثنا وصوت القذائف خارجاً، نقاوم الموت بالضحك ونطرده وننتصر عليه مادامت القذائف تخطئ طريقها، قبل قدومه كنت أتساءل، هل يكون الوطن حقيقة دواءً من كل الأحزان أم أنه شمّاعة فقط نعلّق عليه كل ما نعجز عن حمله، أوينوء بعواطفنا البقاء عليه.

قرأت مرة إهداء على مسودّة كتاب لصديق لم أفهمه ولم أسأله عنه كي يبقى في خيالي كما انطباعهاالأول عني.. (إلى كل ما كان منفياً).. الآن أقول ربما قصد الصديق تلك الأشياء التي ننفيها دوماً من حياتنا، وربما قصد المقهورين في الأرض، وربما قصد أولئك الذين اختاروا الوطن منفى أوالمنفى وطناً، هل يغدوالمنفى وطناً؟؟

الكهرباء هنا مقطوعة تماماً منذ أيام، أسأله عنها حين عاد، فيبتسم ويعلن أمامي أن حاله أفضل بكثير من غيره، على عجل أحضر قلماً وورقة وراح يكتب أرقاماً صرت أتابعه فيها دون أنطق..

525600دقيقة

8760ساعة

365يوم

52أسبوع

12شهر

1سنة

ربط كل هذه الأرقام بقوس، ورسم قلباً ووضع بداخله: حصار حمص!!!

نظر إلى عينيّ مباشرة بعد أن أنهى رسم حرف الصاد، فقلت له: في الحرب تتضح الحقائق، فردّ مباشرة عليك كصحفي ألا تجمّل الأمور، وأن تسمّي الأشياء بمسمياتها، في الحرب دمار وموت وكثير من الجهلوالانتهازية، وهذا ليس في الحالة السورية فقط، بل ينسحب على كل الحروب التي دارت وتدور الآن وغداً، أصوات القذائف لا تهدأ، من المؤكد أنها الآن تحصد أرواحاً، صرت أفكّر وأنا معه، ماذا لولم يصرخ لي، أكنت رحلت مع الراحلين!!هل تأجّل موتي أم سحبني إلى هنا كي أموت؟يلاحظ قلقي فيؤكد أنه يعيش منذ أشهر هذه الحالة، لا تقلق صارت الملائكة تحرس بيتي، جملته الأخيرة تقودنا للحديث عن دولة المستقبل، قال لي إنه علماني، أوصار علمانياً بعد أن اعتلى الإخوان المسلمون عرش مصر بعد سقوط حسني مبارك!!راح يسألني عن عذاب القبر وينكره، يسألني عن يوم القيامة وينكره، يسألني عن جهنم ونارها وبردها وألمها؟؟ وكيف سيعذّب الله بني الإنسانوالجان فيها ثم ينكر، قال لي أيضاً في معرض حديثه:

- الإنسان مخلوق من صلصال من طين ثم نفخ الله فيه من روحه، إذاً الإنسان فيه من روح الله، ومن المعلوم أن أرواحنا تتحرر من الأجساد عند الموت فتتلقى العذاب أوالنعيم إلى الأبد، فكيف سيعذّب الله أرواحنا التي هي قطعة من روحه؟؟!!، ثمّ ألسنا، أي بني الإنسان عيال الله، والعيال تعني

الأبناء دون معنى الأبوة والبنوة فكيف لي أنا الأب أن أضع ابن ابنتي بفرن كبير بيديّ؟؟!!

فتحت عينيّ أمام هذا الحديث، فانتبه مرة أخرى لإرتباكي وضحك وأمسك يدي قائلاً:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله... كنت أمزح معك يا عم.. ماهوإلا عصف ذهني كي ننسى ونتحدث لا أكثر..

في الحقيقة دخلت في دوّامة من التفكير، ليس بحثاً عن أجوبة لأسئلة أفترض عدم ضرورة البحث فيها، بل لأن عقل الإنسان معقّد إلى درجة رهيبة، فكيف ينتقل من حرب إلى عصف ذهني لأفكار مفترضة فيَصِل إلى الشعرة الفاصلة بين الكفر والإيمان، ثم يعود مرة أخرى، أويمضي في جداله وسط هذا الكم من الموت الذي يحاصره.قال لي ناجي يوماً:

"إن أبي لم يكن يصلي قبل خروجنا من حماه في بداية أحداث الثمانينات– هكذا قالت لي أمي– وما إن وصل إلى منفاه على أبواب الوطن لجأ إلى الله، فوجد فيه رحمة تتسع لكل من في الكون".

حالة الحرب في الخارج تنتقل إلى رأسي والطفل لا يزال نائماً، شعرت بأن أبا نزار يصلح أن يكون شخصية اعتبارية في رواية أومسرحية، فطلبت منه أن يحدّثني عن نفسه، فأصدق الأقوال هي التي يبوح بها الإنسان عند اقتراب

الموت، وكأنه كان ينتظر هذا السؤال طيلة عمره - قد يعيش الرجل عمراً بانتظار سؤال قد لا يأتي وقد يأتي - وهنا كنت السؤال الذي أقعده ناسياً كلّ شيء ليحكي عن طفولته في زواريب حلب، وعن عمله في معمل الصابون صغيراً، ثم على نول الخياطة شابّاً، وسائقاً على تكسي عندما كان يدرس في دار المعلمين، وبعدها موظّفاً بما يقارب مائة وخمسين دولاراً شهرياً.تحدّث عن طلابه وتشتتهم منذ زمن بعيد في الأرض وكأن بلادنا تفنّنَت في إبعاد أبنائها، عن زوجته التي لم يرها إلا ليلة الزفاف، وعن ولادة ابنته الكبرى وابنه نزار، عن موت زوجته فجأة، عن ظلمه في كل مكان، اختصر مراحل كثيرة حين قال بعد أن رشف الشاي:

أنا عالمٌبالحُزنِمُنذُطفولتيرفيقي فَما أخطِيهِ حينَ أُقابِلُه.

تذكّرت أبي، فقد قال لي يوماً: ليست الرجولة أن تقول كل ما تفكر فيه، بل أن تفكّر في كل ما تقوله.ربما الآن أستطيع أن أضيف إلى نصيحة أبي أن الرجولة أيضاً أن تبقى في مثل هذه الأوضاع على قيد الحياة!!

هل تلعب طاولة الزهر؟؟..

يسألني فأبتسم راضياً متحدياً، صرت متأكداً أن هذا الرجل كان ينتظر أيّ أحد - وليس ابنه الغائب فقط - أي أحدٍ قادم، لحظات ويضع بيننا طاولة الزهر ونبدأ، ليقول لي ونحن نصفّ أحجارنا البيضاء والسوداء، لا تستغرب، لن تضيق علينا أكثر، أصوات القذائف تختلط مع طرقات الزهر، دويك، رصاصة، شيش بيش، رصاصتان، دوبارة، انفجار لغم بعيد، أكابر (هباهب)، لا شيء، يرفع رأسه: دوشيش، تهزّ البناية من انفجار قريب

ويستمر اللعب، ينقل أحجاره برشاقة فارس عرف آلية التعامل مع حصانه، هذه الحرب جعلت من كل انسان على هذه الأرض محارباً كي يفوز، بعضهم نجا وآخرون رحلوا إلى البعيد، ربما لم يحالفهم النرد في حياتهم يوماً، وربما كانوا من الآمنين المحميين، من المحاربين الذين نجوا!!

أخذتك خشباَ.. يضحك..يضحك كثيراً، ذكّرني بالطفل النائم حين كان يضحك، صوت جلبةٍ قريبة تجعله ينتفض ليركض باحثاً في الزاوية المظلمة عن صورة يخفيها، فيرميها لي ويطلب أن أضعها داخل الكنبة، فأفعل بعد أن أسترق النظر إليها وكانت المفاجأة!!

إنها صورة نزار ابنه.. نزار الذي تم خطفه معي بأنطاكية، ثم نجونا أنا وهو، ومات ثلاثة من رفاقنا، والتحقنا بأبي حسام، وبعدها انفصلنا، حيث عاد إلى تركيا لإيصال النازحين، واحضار بعض وسائل الاتصال للثوار.. يجمد الدم في رأسي، يداي ترتجفان حين صار الجنود والأمن على الباب..

الفصل الثامن

المسافة بيني وبينها حدود ومدينتان منكوبتان ومخيّم أهلنا "اللاجئين"، ومازلت آمل أن تصل رسالتي التي بعثتها قبل شهرين مع كتيبة (الأحرار)، التي تمت إبادتها ببرميل من طائرة الميغ..رسالة حب واحدة تكفي لإزالة آثار العدوان عن حياتنا.. الكلمات تزرع أملاً لبناء بيت جديد رغم أن راجمة الصواريخ لم تبرح مكانها منذ بدء المواجهات العسكرية.

إنه الحب.. فهل يفعل العشق كل هذا الخيال المجنون؟؟

في الطريق إلى اللطامنة كل المدن والقرى تتشابه فيما بينها، أسرح لحظة، ثم أُخبِرُ روح نيكولاس التي استحضرتها لحظتها بجانبي عن تلك الحساسية المفرطة التي يعيشها الريف تجاه المدن والمدن تجاه الريف، ثمة إزدواجية رهيبة في العلاقة، ربما تلاشت قليلاً بعد انطلاق الثورة واختلاط الدم، بينما في سنوات الخوف كان غريباً أن تتزوج بنت المدينة من ريفي والعكس صحيح، لم تتفاجأ روحه بهذا الشرح– أوهكذا تخيّلت– فربما لديهم في أوربا ذات الحساسية تجاه أبناء الريف!!

نيكولاس صحفي إيرلندي تعرفت إليه منذ أيام، وهربنا معاً إلى أحياء دخلناها أول مرّة، أنقذته من الموت حين كانوا يريدون إعدامه، وبعدها علمت أنهم وضعوا رأسي على قائمة المطلوبين!!

لكل المدن السورية أبواب صدّت الغازين يوماً، كما في كل الحضارات، بينما هنا تختفي الأبواب كلها ليغدوالرجل هوالبوابة الرئيسة التي يعبر منها كل شيء، أحاول أن أقطع صمت المقابر والطرقات الخالية بالحديث لنيكولاس عن تاريخاللطامنة، التي تعتبر من المواقع القديمة والنادرة في العالم، حيث عثروا فيها على آثار وبقايا فؤوس حجرية تعود إلى أكثر منثلاثة ملايين سنة، أقول بحزم وإصرار هنا أول وجود عمراني مجتمعي لإنسان خارج أفريقيا.

هل يتجاهل الإنسان تاريخهوأسلافه الأولين، هل يمشي أهل درعا بمحاذاة بصرى دون أن يشاهدوا مصارعة رومانية؟؟هل يقف أهل تدمر في شارع النصر دون أن يحنوا رؤوسهم لموكب أذينة وزنوبيا؟؟هل يشاهد أهل حماه نواعيرهم دون أن يبحثوا عن عقولٍ صنعت أعظم آلة لاستجلاب المياه؟؟هل يدوس أهل اللاذقية على تراب أوغاريت دون أن يتمتموا بأحرف الأبجدية الأولى؟؟هل ينام أهل الرقة دون أن يتفكّروا بهارون الرشيد؟؟وهل لمعرة النعمان أن تغيب شمسها دون أن يقرأ سكانها الفاتحة لعمر بن عبدالعزيز، ويمسحوا على رأس صاحب اللزوميات؟؟هل تستمر حياة أهل الشام دون ذكر بني أميّة؟؟

ربما يتصالح الإنسان مع تاريخه حتى ينساه أويغمِضَ الطرف عن وجوده، فالمصريون يمرّون بسلام جانب الأهرامات دون أن يتوقفوا، بينما

يقصدها ملايين البشر من كل حدب وصوب، ولا أنسى ذلك الاسباني الذي شاهدني أطيل الوقوف جنب عمود بغرناطة، فجاء بجانبي يبحث عن أمرٍ ظنّ أني أضعته، وحين رأيت فضوله جاوبته فوراً:

- أبحث عن تاريخ أجدادي هنا!!

ربما لا يعرف ذلك الاسباني أن غرناطة حملت اسم أغلى المدن يوماً فكانت:

دمشق العرب!!

نيكولاس ربما لا تعنيه كل هذه الأفكار، فأراه يجلس مراقباً كل شيء، تعرّفت عليه في المركز الصحي بالليرمون في حلب، كان قد وصل توّاً، ولأني أتحدث الإنكليزية أفضل من دليله الذي رافقه قرر صرف مرشده، وطلب مني أن أساعده وأعمل معه لإنجاز ما يريد، تعارفنا سريعاً، ففوجئت بعد ساعة أوأكثر أنه يتحدث لي بهمس عن فيلمي الأخير الذي فاز بجائزة قبل وصولي إلى الوطن، دائماً تشكّلت لدي قناعة مطلقة أن من يسكن غرب الأبيض المتوسط يتعامل مع الحياة بطريقة أفضل منّا وأكثر ديناميكية، وفي هذا الصحفي خير دليل، فهولا يعمل مع أحد دون أن يعرف شيئاً يسيراً عن تاريخه، أوعلى الأقل اتجاهاته حتى لا يفاجئه بأي ردة فعل في أي موقف!!

نيكولاس كان متزوجاً من فرنسية ذات أصول مغربية وله منها ولد وبنت، أخبرني أيضاً أنهما انفصلا قبل قدومه إلى سوريا، ودون أن أسأله عن السبب أجاب بقول نيتشه:

"عليك ان تطرح السؤال التالي عند عقد القران: أتظن انك قادر على متابعة الحوار وبلذّةٍ كاملة مع هذه المرأة حتى الشيخوخة!".

الحب جوع كافر للجمال، لا يعطّل الإنسان في رحلة بحثه عن الحب إلا الحرب والديكتاتورية، الاستبداد أيضاً يقتل الحب، الاستبداد بكل أنواعه، فكل ثورات العرب قامت للتخلّص من الاستبداد.

في الليرمون دخلت إلى المركز الصحي مع أشخاص أصيبوا خلال هروبنا الأخير، كنتُ أرتّب عودة إلى تركيا حين تمّ القصف، جاء كما الحب، كما الوحي ببدء القتال، كما الصبح دون انتظار، تعانق الموت والحياة للحظات فهربنا في غفلة العناق، تشرّد الجميع وأصيب العشرات، أربعة صواريخ متتالية كانت كافية لإسقاط ست بنايات بجانب مدرسة أم المؤمنين الثانوية، إنها القيامة حين فاض الغبار فوق كل شيء، غبارٌ يحمل في طياته آلام وآمال وقصص حبٍّ دُفِنِت هنا، هل تصبح الحياة بلحظة أطلالاً لم يرحل أهلها بعد، أطلالاً دارسة لا دليل على وجودها إلا بقايا حجارة مقدّسة معمّدة بالحرب!!

أهيم على وجهي كمئات غيري، تعود إلى الذاكرة شوارع نيويورك لحظة الظهيرة في الحادي عشر من أيلول، أنفاق مدريد بعد تفجير المترو، هاربون من الموت إلى متر ينعم بالحياة، لا يهم كيف كانت النساء، لا يهم كيف الرجال، أطفال كانوا قبل نصف ساعة جزءاً من عائلة كبيرة والآن أصبحوا أيتاماً بلا أصل ولا فرع ولا رفيق، إنها القيامة وطائرات الظالمين، رجال ملتحون يملؤون المكان، ونساء تركن كل شيء، لا حياء هنا إلا من الموت، لا أمسك نفسي فتتساقط الدموع دون توقّف.

ست بنايات كانت هنا، وقد أخذت سنوات من عمر من بناها وسكنها لتغدوحقيقة الحياة فيها عبارة عن بقايا اصبع بين الركام، يدٌ ذراعٌ ساقٌ دماءٌ

لا حياة، رجال يركضون من دمارٍ إلى دمار، اختفت ضحكات الأطفال وألعابهم، وسكتت النسوة وذابت حليتهن، من دمار إلى دمار يتحرك الرجال محنيين نحوالأرض يتابعون الصوت بحثاً عن إعلانٍ للحياة، أقف مذهولاً بينهم، فهؤلاء أصحاب الأطايب والمقامات قد صاروا ذكرى بين الدمار، يمسك أصابعي في دهشتي طفل صغير لا يتجاوز ستة أعوام، شعره الأشقر غاب بين الغبار، يسألني عن أهله فقد أرسلته أمه ليشتري من الدكّان شيئاً وعاد!!

ستقبلك المدينة، لا تخف أيها الصغير، ستكبر ها هنا دون أمّ ودون أب، بلا رفاق ولا مدرسة، ستقبلك المدينة مقاتلاً فقط، أومسعِفاً مثل أغلب هؤلاء، أنظر في عينيه مباشرة فأراه يقول لي:

- هل مات أهلي؟؟!!

ربما ماتوا وربما هم يموتون الآن تحت الإسمنت، وربما كانوا من الناجين لوحملوا السلاح جميعاً مقاتلين!!!

كنت فيما مضى أستغرب من استعمال بعض الأفعال العربية بصيغتها المضارعة مثل: أنام وأموت وأحيا وأذهب، لكن هنا حقيقة لا مجازاً يغدو فعل الموت مستمراً لأيام!!، فلا تيأس أيها الطفل الصغير فربما عاد أهلك من قلب الدمار، ربما عادوا فربنا رحيم عظيم..

يتركني الطفل ويركض باحثاً عن أهله الميتين..

امرأة مفجوعة بأطفالها، وقبل ذلك بزوجها الذي انتسب للجيش الحر، فتاة ثكلى بأخوتها الثلاثة، طفل لم يبق من أهله أحدٌ، أبٌ واجمٌ أمام هول الحدث بعد أن رحل الجميع وتركوه وحيداً، فعاد ولم يجدهم كما كانوا،

تضيق هنا الدنيا، الموت غدا عبثاً يأتيهم من تحت السماء، فالأرض لهم منذ زمن طويل بينما السماء للطائرات المقاتلة، الموت يشكُل ألسنتهم إلا عن لعن العرب والغرب والمجتمع الدولي!!

يصيح رجل من بين الجموع:

- وحدوا الله يا إخوان..
- هون شيخ هون..
- طالعوا الجميع.. ما تخلوا حدا أبداً.. لا إله إلا الله..
- الجرحى على الليرمون بسرعة..

الدموع تختلط بالدماء، لا أحد هنا إلا أنتم أيها المقهورون، آآآآه يا وطني كم نحن محزونين، أنضم لناقلي الجرحى والمعطوبين، تختلط الأيدي وتتشابك لتحمل بقايا روحٍ لإنسان، الأرجل ترتطم ببعضها، الألسن تتقاطع بالدعاء، يمتزج الدعاء، أين أنت يا الله عمّا يحدث هنا؟؟!!

متعارضين متجاورين متلاصقين متعاكسين عيونهم شاخصة إلى السماء، التي فتحت أبوابها لاستقبال زوارها الجدد، عانق الغمام أيها السوري.. لك السماء لحافاً والأرض مرقداً.. فكل البلاد منفاك!!، في الشارع الذي اصطفّت حجارة بأحجام مختلفة على جانبيه باتت السيارة تشق طريقها وعلى ظهرها جلسنا نحن ننتظر أملاً ينقذ هؤلاء، حالة من الذعر انتابت كل من كان حتى سائق السيارة، فالموت هنا يعرف طريقه جيداً ولا يخطئ، وإن كان قد أخطأني مرة أواثنتين فلأن أجلي لم يحن بعد، وورقتي لم تزل خضراء كما كانت تقول جدتي عائشة، آخرون يطلبون من مشاريع الأموات أن ينطقوا

الشهادة، في مثل هذه الحالات يصبح العجز ماركة مسجّلة للصحيح، بينما المعطوب ما له إلا أن يردد بضع كلمات بانتظار الرحيل.

حين تغدوالحياة سرباً من الدعوات الطيبات المباركات، وحين يصبح الإنسان في حال، ويمسي في حال، وحين يخسر الرجل كل ما جمعه طوال عمره بلمح البصر، وحين تفقد المرأة أبناءها الذين حملتهم في رحمها وعلى الأرض هكذا بلا سبب سوى أن الصاروخ القادم من مئات الكيلومترات اختارهم ليكونوا ضيوفه اليوم، ماذا لوابتعد الصاروخ عشرات الأمتار أيضاً لكان الآن من هومعطوب مسعِفاً، ومن يقوم بالإسعاف هوالمعطوب الذي ينطق بكلماته الأخيرة، إنها سوريا حين يغدوالموت كما الوجبات السريعة.

تسارعت المشاهد أمامي، تمنّيت لحظة لوأني أرى حلماً سينتهي بعد لحظات لأفيق مذعوراً عطشاً، كانت حقيقة لا تقبل الشك اطلاقاً، سجادة صلاة تعانقت مع صليبٍ تحت الحطام، التاريخ والجغرافية يتشكلان من جديد في هذه البلاد، تميل بنا السيارة يميناً فنتمسّك نحن الأحياء المسعفين بحديدها كي نبقى على قيد الحياة، ولننقل بعد لحظات من كان ينطق الشهادة إلى سرير نام عليه كثيرون قبله، في المشفى الميداني بالليرمون تتعالى الصيحات والدموع، في كل الأصوات بحّة وغصّة فماذا أنتم فاعلون أيها الأطباء هنا؟

سيدور حديث طويل بعد ذلك بين أصدقاء قدامى اجتمعت معهم صدفة بعد أن تحوّلوا إلى مقاتلين لأجل الوطن، حول فكرة الوطن الذي من الممكن أن تملّه أوتغضب عليه، أوتستسلم لكل ما يريد دون أي رغبة

بالتغيير، لكنك ستدافع عنه برغم كل ملاحظاتك عليه، فلا تسمح لأحدٍ أن يلمس شعرة من رأسه!!

حالة من الشلل العام، شلل بالتفكير والشرايين، حركات الأطباء تتسارع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، والأصحّاء يبكون الراحلين والذين يستعدون للرحيل، أنظر إلى الطبيب الشاب الذي شمّر عن يديه كشيخٍ استعد للوضوء، يداه منغمستان بالدم كقاتل، بينما تكاد عيناه الزائغتان من رائحة المطهّر أن تنام عن كل المشاهد التي تتعاقب أمامه، رجلٌ بجانبه يبكي لعجزه عن فعل شيء أمام موت ابنه على السرير، الذي يرتعش تحت الطفل المنتفض بشكل متتالٍ ليشهق شهقته الأخيرة، ثم يسلم الروح ليصيح الرجل الذي أسميته أبا صابر:

- الله معك يا ابني.. الله يرضه عليك.. الله معك يا روحي.. سلّم على أخوك وجدّك وعمّك.. الله معك..

ثم يغمى عليه فيصرخ الطبيب بممرّض شاب وقف مذهولاً أمام الموت:

- هات أكسجين من جوا..
- ما في!!
- الأنابيب جوا.. موجودين بآخر الغرفة على اليمين..
- ما فيه دكتور.. اجواليوم الظهر أخدوهن..
- مين؟؟
- ما بعرف بس قالوا انومعهن أوامر ياخدوالأنابيب لمكان تاني، واخدوكمان الدوا اللي بالكراتين..

ضرب الطبيب على رأسه وصاح:

- يا الله.. يا الله... يا الله..

يستسلم الطبيب أمام الموت، لا شيء يقاوم الموت اطلاقاً، نصف ساعة أوأقل وينتقل المعطوبون إلى الدار الآخرة لتغدوضحكاتهم صامتة، ودماؤهم باردة، بينما انشغلت هياكل الأحياء بجمع الجثث وترتيبها في السيارات لنقلها إلى الحديقة المجاورة، أمشي معهم وأنا أفكّر بحمل سيزيف الثقيل، هل يساوي حملهم هذا؟هم الأسطورة لا هو، هم التاريخ لا هو، هم الحدث لا هو، يمشون وكلّهم أملٌ أن الأموات سيقومون برغم أن بعضهم بدأ يردد سورة ياسين والموت يسيطر على جانبي الطريق.. أين أنت يا الله عمّا يحدث هنا؟؟!!

تزامن وصول نيكولاس مع وصول الجثامين الأخرى، التي تم انتشالها من تحت الدمار بسيارات أخرى، فجأة ظهر أبوسالم وأشرف على مراسم الدفن كاملة، في الحقيقة لم أتفاجأ بظهوره فهوأمير حلب، لكن ما الذي أوصله إلى هنا؟؟

قبور طرية جاهزة لاستقبال الوافدين، لشدة التأقلم مع الموت قام كل حيّ بتجهيز قبور قاطنيه قبل موتهم، أختلس النظر إلى أبي صابر الذي رفض وضع ابنه في السيارة، بل حمله بين يديه ومشى الطريق كله حتى وصل إلى قبره حيث سيفارقه، لكنه صعق الجميع حين نزل معه إلى القبر وصاح بالحاضرين:

- اللي بيحب الله يحط تراب.. ادفنوني معو..

كررها مرات بصوته العالي وكأنه يريد إسماع السماء كي تقبض روحه أيضاً، وجوم على وجوه الجميع، بعضهم انهار بكاءً، حتى نيكولاس بدأت اطرافه ترتعش وهويحمل كاميرته لتصوير هذا المشهد، في الحرب كل المشاعر سواء ولا شيء يكتمل، اقترب منه أبوسالم ومدّ يده قائلاً بصوتٍ عال:

- "وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم".

لا أدري من يعزّي من، ومن يبكي على من، دائماً الميّت لا يشعر بألم الموت فهويرحل بعد أن يترك غصّة في حياة الآخرين، فيذكرون محاسنه وضحكاته ومواقفه التي تصبح قابلة للتأويل بحسب الراوي.. يخرج الجميع من الحديقة التي تحوّلت لمقبرة بعد أن تأكدوا أنهم ما نسوا أحداً، فقد جمعوا خمس عشرة جثة من المركز وثلاثوثلاثين من تحت الأنقاض، خرجوا ليتابعوا الحياة وتفاصيلها، لقد فقد الموت هيبته وسطوته، ولم يحافظ إلا على أسبابه التي صارت تكثر وتتعدد كامتداد الأيام الطويلة، خرجوا لتستمر الحياة، بينما صار المدفونون أرقاماً تضاف إلى فاصلة في خبر ضمن نشرة طويلة من أنباء الموت، تصدّروا الشاشات في موتهم، وهم الذين عاشوا على هامش الحياة طوال أعمارهم، صار لهم لسان ناطق باسمهم هم الأموات، يتحدث عن طريقة موتهم وتوقيتها، يصف خروج أرواحهم والعجز الطبي الذي لاقوه، كان ذلك اللسان يخرج على الشاشات مترافقاً مع نشرة الأخبار من كل العواصم العالمية بعيداً عن المدن السورية ورائحتها المغموسة بالدم!!

اقتربت من أبي سالم وألقيت التحية عليه، فسألني عن غيابي فرويت له القصة كاملة ونحن نقطع الطريق إلى المركز الصحي الذي كنّا فيه، بعد أن

أخبره أحدهم أن هناك أمراً قد أتى إلى المشفى لأخذ أنابيب الأوكسجين وعلب الدواء وإفراغ النقطة الصحية من أغلب محتوياتها، وماهي إلا دقائق حتى كنّا هناك يرافقنا نيكولاس الذي تعرفت عليه فوراً وعرض عليّ أن أكون معه..

دخلنا إلى المشفى المؤلف من غرفتين فقط، فوجدنا الطبيب الشاب قد أسند ظهره إلى الحائط، وشد فخذيه إلى صدره، وشبك يديه فوق رأسه وصوت نحيبه يصل إلى الباب، بينما بللت دموعه رداءه الأخضر، إنه العجز والألم، إنه اليقين بعدم القدرة على فعل شيء أمام آلة الحرب، الحرب هي القيمة لا ما ينتج عنها.. فَخُض حربك كما هي دون أن تتذمّر أيها الحكيم، كيف لمقاتل أن يبكي؟؟!!كنت يقيناً أن المقاتل لا يبكي، هوشخص آخر غير الذي نعرف، ربما يتجرّد من كل ما نعرف ويبقى أمامه خيارين فإما قاتل أومقتول، رآنا الطبيب فوقف ماسحاً عينيه، ناظراً إلينا مباشرة حين سأله أبوسالم عن حقيقة ما سمع، فكان جواب الطبيب مباشراً:

- نعم، لقد أتوا ظهر اليوم وأخذوا كل شيء كما أخبرني الممرض قبل أن يذهب ليتفقّد أهله بعد القصف، قال لي إنهم كانوا تسعة أشخاص يكتبون على سترتهم العسكرية اسم كتيبتهم ومعهم قبضة يتحدثون بها، وقد طلب منهم قائدهم، الذي كان على الطرف الآخر من الاتصال اللاسلكي أن يأخذوا كلّ شيء ويذهبوا إلى بيت أبيضرار على طريق المطار!!

زمّ أبوسالم شفتيه وقبض على كفه كأنه يعصر برتقالة لم يبق منها شيء، حين انصرف مباشرة وتركني أنا ونيكولاس بعد ان أمر بعض مرافقيه أن يرافقونا حيث نشاء، فكان لنا من الوقت بعضه كي نجلس مع الطبيب

الشاب الذي تفاجأت أنه في السنة السادسة للطب البشري بجامعة حلب، وأنه من قرى درعا!!

في منطق الحروب كل شيء يغدوخدعة إلا الموت، حتى الحياة والبيانات العسكرية تغدوخدعة، سأضيف على الحقائق التي سأسلّم بوجودها أيضاً خلال الحرب هذا الشاب الذي رفض كلّ شيء، وبقي على أرض حلب لأن هناك من يحتاج بقاءه..

مرهف..

ربما وُلِد مرهف في صيف عام **1987** أو**1988**، نحيف البدن، أسمر الوجه، بني العينين، ذا شعر خرنوبي أجعد، لأبٍ وأمٍّ من المؤكد أنهما انتظرا طويلاً كي يسمعا كلمة دكتور قبل اسم ابنهما، وها هي اليوم سوريا بأكملها تفصل بينه وبين عائلته، جلست مع مرهف ساعتين تقريباً كانت كافية ليتحدث عن بدايات الثورة في درعا، ومتابعته للأخبار وهوالجالس في حلب لاتمام دراسته، كان يشعر بالحنق على كل لحظة غابت لم يكن فيها هناك، وربما هوفي هذه اللحظة قرر البقاء تكفيراً عن ذنبه في عدم التواجد بين أهله ساعة الانطلاقة، أقول له:

- هي لم تكن ثورة درعا فقط!!

مرهف استطاع خلال السنوات الأخيرة أن يجتاز أصعب الامتحانات الدراسية، وها هواليوم يستثمر كل ما تعلّمه لخدمة أهله أيضاً، كان يتحدث بحرقة عن ضياع كل شيء، عن أصدقائه الذين ماتوا، وآخرين فقدوا مستقبلهم حين خرجوا من البلاد خوفاً من الموت، وثلة أخرى تركوا الطب

وحملوا السلاح، ألقى باللوم كثيراً على أولئك الذين رقصوا في بداية القتل بدرعا وحمص على أرض المدينة الجامعية بحلب، قال لي بالحرف الواحد:

- لقد رقصوا على دماء أهلي، كنت أجلس وحيداً في غرفتي بالوحدة السابعة وأبكي!!

البكاء آخر الأسلحة، وربما يكون أوّلها عند العجز عن الدفاع أوالهجوم..

مرهف تحدّث عن الحالات التي واجهها خلال عمله كطبيب في المشافي الميدانية، عن السرقات، عن أسماء متورطة بالدم، عن مؤامرات، عن تحوّل النقطة الصحية إلى مسلخ حقيقي للموت بسبب الشلل التام، عن فعل شيء لغياب مقوّمات العمل.

ختم حديثه ونحن نودّعه بتأكيده على البقاء في حلب حتى النهاية رغم كل شيء..

قلت له ممازحاً:

- سنحضر عرسك قريباً يا مرهف..

ردّ:

- وستكون بجانب الاشبين يا أستاذ!!

لحظتها انتبهت إلى الصليب الذي يكاد يكون مخفياً في رقبته، إنها سوريا حيث يتعانق الهلال والصليب تحت القصف ويتّحدان في مواجهة الموت!!

أتذكّر ما حدث وصوت نيكولاس بجانبي في السيارة يسألني:

- كم بقي لنا من الوقت كي نصل إلى اللطامنة؟؟

في الحقيقة لم يبق الكثير، فهذه الأراضي الزراعية التي تمتد أمامنا كانت هي البوابة الرئيسة للطامنة التي سنبحث فيها عن حقيقة ما حدث خلال المجزرة، كانت تلك الفكرة التي بنيناها معاً، نيكولاس وأنا، عقب الهروب الكبير..

الفصل التاسع

كعازفٍ على القانون يتابع أبونزار قلب حجارة طاولة الزهر، دوشيش، أسأله إن سافر يوماً خارج سوريا؟؟وكأن سؤالي فتح شبّاكاً من ذاكرته ليضحك قليلاً ثم يقول:

- قسماً بالله من لحظات كنت عم أفكر لما كنت بلبنان وقت الحرب الأهلية، بتعرف ليش تذكرتها؟؟

- لأ.. ليش؟؟

- لأنوكنا نلعب طرنيب وليخة تحت القصف والضرب.. كانت أيام..

في الحقيقة لم يكن هناك متسعٌ من الوقت كي يتحدث عن ضخامة الحرب واجرامها في ضواحي لبنان لأن الحرب خارجاً كانت أكبر من كل التصورات، أقطع الصمت بالحديث عن الموقف الدولي والعربي، فلعن العرب والغرب والموقف الدولي، وبدأ يشرح لي كيف أجهض العالم كله تجربة المعارضة السورية في الخارج، مقارناً إياها مع المعارضة العراقية بعد التسعينات، وانتهاء بقدومها إلى أرض الرافدين على متن دبابات التحالف،

هناك أرادوا انجاح التجربة، وهنا صمموا على افشالها بكل الطرق.. كنت أصغي له حين بدأ يفرز مقومات الحرب وأسباب فشلها ونجاحها:

- في عام 2003 عندما أعلن جورج بوش الابن الحرب على العراق بمساعدة دولية مطلقة، وبخلاف فرنسي روسي على هذه الحرب، وقفت الأنظمة العربية كلها على صفّين من الحرب، لكنها كلها ضمناً كانت تتمنى وتنتظر الخلاص من النظام العراقي ورموزه، فوجدوا فيها فرصة لتبييض صفحاتها مع شعوبها، فسمحوا للشباب المتحمّس أن يذهبوا إلى العراق بدافع الجهاد والدفاع عن الأرض والعرض، ولأن هذه الشريحة المجتمعية تعبت من حالة الحرب واللاسلم، واللاسلم واللاحرب اندفعت خلف حلم الموت فداءً للأوطان، مستحضرة صورة عز الدين القسام ويوسف العظمة والأمير عبدالقادر الجزائري، مندفعة خلف التهييج الاعلامي الذي لعبته كثير من القنوات عبر برامجها، رغم عدم توقف هذه المكنات عن بثّ أغاني الميجانا والدلعونا والعتابا، أتعرف يا بني أن التلفزيون السوري لحظة سقوط تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس في بغداد كان يبث برنامجاً وثائقياً عن الحيتان والدلافين وعالم البحار!!، رغم أن هذه الشاشة هي من حرّضت بأمر القيادة السورية الشباب على قطع الحدود بطرق شرعية وغير شرعية للقتال على أرض العراق.. كان ابني واحداً منهم، واحداً من الذين انغروا بالحديث القومي والديني فذهب، بغفلة منّا، إلى العراق حيث تم اعتقاله من قبل القوات الأمريكية بعد أن سلّمه إلى الأسر رجل عراقي من أهل الجنوب!!

شيش يك، يضرب النرد بقوة وكأنه يردّ على الانفجار الأخير الذي جعل الطفل الصغير يتململ في مكانه، لينهض أبونزار متجهاً إلى المكتبة الصغيرة ليبحث عن عدد قديم من مجلة العربي، وليفتح على صفحة كان قد وضع عليها ورقة صفراء صغيرة مشيراً لي بالاستماع جيداً:

- "إلى السيد، الحسيب، النسيب، سليل الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الشريف المبجل، الشريف حسين، سيد الجميع، أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين، ومحطّ رحال المؤمنين الطائعين، عمّت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع وافر التحيات العاطرة، والتسليمات القلبية الخالصة، من كل شائبة، نعرض عليك أنّ لنا الشرف بتقديم واجب الشكر، لإظهاركم عاطفة الإخلاص، وشرف الشعور والإحساسات نحونا"!!

يرفع حاجبيه مستنكراً موضحاً أن هذه مقدّمة احدى الرسائل التى بعث بها مكماهون الانكليزي إلى الحسين بن على قائد ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد الخلافة الإسلامية العثمانية..

- أين الصلة بين حديثك وهذه الرسالة.. لم أفهم؟؟

- هذه كانت وصلة من الألقاب الفارغة التى أطلقها الانكليز على زعيم العرب في ذلك الوقت كى يمرروا مشروعهم باحتلال الأرض بعد خروج العصملّى.. الحالة تكاد أن تكون متشابهة الآن، هناك مجلس وائتلاف وجبهات وأقطاب متعددة لا تملك إلا الألقاب التى تحملها وأشدّ خوفي أن يمرر مشروع القوى الأجنبية..

- أين مشروع الشعب الذي ثار؟؟

- صار المشروع في الزعتري وكلّس والريحانية وأنطاكية ووووو..

جلبةٌ قريبة تجعله ينتفض ليركض باحثاً في الزاوية المظلمة عن صورة يخفيها فيرميها لي، ويطلب أن أضعها داخل الكنبة، فأفعل بعد أن أسترق النظر إليها وكانت المفاجأة!!

إنها صورة نزار ابنه.. نزار الذي تم خطفه معي بأنطاكية، ثم نجونا أنا وهوومات ثلاثة من رفاقنا، والتحقنا بأبي حسام، وبعدها انفصلنا حيث عاد إلى تركيا لإيصال النازحين واحضار بعض وسائل الاتصال للثوار.. لقد روى لي أبوه القصة الكاملة بعد أن عبر نهر الفرات، تدور الدنيا ويجمد الدم في رأسي، يداي ترجفان حين صار الجنود والأمن على الباب..

بخطى سريعة عجلى مهزوزة جاء العسكر ليسألوا أبا نزار عن أيّ أحدٍ دخل بيته أواستخدمه، وبخطى حبلى بالقهر والذل مشيت معهم بعد أن اقتادوني، برغم كل محاولات أبي نزار لثنيهم عن ذلك، مدّعياً أني ابنه الوحيد نزار، مقسماً بكل آيات الذكر الحكيم.بحركة معاكسة لصعودي كنت أهبط معهم الدرج المتهدّم نصفه، بينما حمل أبونزار حفيده الذي أفاقه العسكر، ونزل مهرولاً خلفنا طالباً منهم أن يتركوني فأنا وحيده الذي بقى له، بينما صوته يرن في خلدي، كانت صورة نزار وتقاطيع وجهه التى تتقاطع إلى حدٍّ كبير مع أبيه تصطدم بي فتدفعنى للخلف كى أعود وأحتضن الرجل الراكض خلفنا، لكن لا مجال للأمنيات في حضرة العسكر!!

أمام ضابط يضع على كتفيه ثلاث نجمات، أقف مكتوف اليدين، وبجانبي آخرين تم اعتقالهم اعتباطاً من الشارع الخلفي، فيبدأ صاحب

النجمات بكيل الشتائم والمسبّات، يغدوكلّ شيء سراباً إلا وجودهم أمامنا ووجودنا بينهم، لقد صرنا معتقلين وانتهى الأمر برغم صياح أبونزار من خلفنا:

- هذا ابني الوحيد.. خلوه..

حقيقة لم أكن أريد الرجوع إلا كي أداعب ذلك الطفل، فأختفي مرة أخرى وأظهر له فجأة ليضحك وينسى الألم والجوع..

على ركابنا نجلس، ننتظر قدراً ينطلق كالرصاصة من فم الضابط الذي ينظر إلينا واحداً واحداً كأعداء محتملين، وماهي إلا نصف ساعة حتى يأمر بترحيلنا عبر سيارتَي الشرطة الخضراء إلى المخفر القريب..

دائماً كنت، كأي سوري، أملك تلك الفوبيا من سيارات الشرطة، فما إن كنت أراها في كل مراحلي العمرية حتى أشعر بأنها قادمة لاعتقالي بلا سبب، وقد استمرت معي هذه الفوبيا في كل البلدان التي زرتها، حين تركب في سيارة الشرطة تشعر بأنّ كل شيء تغيّر، الطرقات والمباني والأرض والسماء وحتى وجوه البشر، كل شيء تغيّر..!!فهل تُحدِثُ هذه السيارة كل الفرق وقت الحرب؟؟في الحقيقة كل شيء تغيّر في الحرب أيضاً، حتى الخوف من الشرطة قد تغيّر!! إنها الحرب ولا عجب..

حقيقةً لم أكن أهتم بأشكال العساكر الذين يحيطون بنا من كل اتجاه بقدر ما كنت أشعر [أني كثقب أسود في فضاء كبير، أتّسع كلّما ابتلعت الأشياء المتناثرة بغير اهتمام في المجرّة، كثقب أسود تشكّل من لا شيء لكنه قادر بأفقه الحدثي أن يبتلع كل ما يعترض طريقه أياً كانت ماهيته، نصف قُطري انضغط كما لوأن الكرة الأرضية تحوّلت لحبة فول صغيرة، كل قوانين

الفيزياء تعطّلت هنا، السرعة الابتدائية لا تساوي الصفر، والزمن صار مربّعاً بأرقام كبيرة، بينما ضاعت الكثافة وسط الكم والنوع، كل شيء يتغيّر حتى اختلاجات صدري من رائحة العسكري الذي يمسك رأسي!!

في سيارة الشرطة كل الوجوه تتشابه، كل الوجوه تترقّب مصيراً سيأتي حتى لودفعوه بعيداً بأيديهم، سيأتي رغماً عنهم ودون خيار منهم.يصيح شاب قريب:

- الله أكبر.. يا الله.. يا الله..

ما كاد ينتهى من لفظ الهاء في اسم الجلالة حتى انهالوا عليه ضرباً ولكماً بأيديهم وبأخمص البنادق، يضع الباقون رؤوسهم في الأرض بينما كنت أتساءل:

- ماذا يضيرهم لوتكلّم الرجل مع الله!!

كل المعتقلين سوريين– على الأقل هكذا شعرت– بعضهم وجوههم دامية، بينما الآخرون كانوا أشباه بشر من شدة الإنهاك والتعب والرعب الذي انتابهم لهول ما حدث ويحدث، أنظر إلى الجنود مباشرة، في غفلة الزمن جاؤوا إلى هنا، وجوههم لا تشبه المدينة، عيونهم لا تتقاطع مع جمال الشجر في شوارع حلب، أصواتهم لم تكتسب شيئاً من مقامات الطرب القديم، حتى لهجاتهم كانت قادمة من الشرق والغرب!!

صوت أبونزار ما يزال يرن في أذنيّ، ويعود إلى الذاكرة صوت أمي التي لم تهدأ أبداً حين كنت مختبئاً في البئر، ودخل العسكر كي يعتقلوا أخي الطبيب الصغير، هوذات الصوت تقريباً، لكن هنا أنا لم أكن مختبئاً تحت الأرض، بل

بين أيديهم، وبرغم أن طولي يفوق المائة وخمسة وسبعين سنتيمتراًفقد شعرت بأن قدميّ لا تلمسان الأرض، فأطير محمولاً من يدٍ إلى يد ومن قدم إلى قدم.

أصوات الإنفجارات تعلو، بينما السماء كادت تغيب عن المدى المجدي للعين بعد أن أخذت حمولتها من الشهداء لما مضى من ساعات النهار، ونحن نقترب من المخفر بسيارات الشرطة والدبابات تحيط بالشارع حين انطلقت قذيفة آربي جى من مكان لم أره صوب البرج الذي يدير الدبابة التى اشتعلت بها النيران فوراً، وقبل أن تنفجر كانت السيارات قد غيّرت طريقها لتذهب باتجاه آخر بعيداً عن الموت، لكن لا مفرّ من الموت في هذه البلاد، في وسط كل هذا يعود الرجل للصراخ:

- الله أكبر.. الله أكبر.. يا الله.. يا الله..

فيعودون لضربه بالرغم من رعبهم، وأقول في خاطري:

- ماذا يضرّهم لوتحدّث هذا الرجل مع الله؟؟.. ثم أنظر من شباك السيارة الخلفى وكأني أصيح:

"أين أنت يا الله عمّا يجري هنا؟؟".

شعرت بأن هناك زوبعة تأتي من بعيد كما في الرسوم المتحركة فتختطف كلّ شيء، والرصاص ينزل من كل حدب وصوب تجاه هذه السيارة التى مات على الفور سائقها الهارب من الموت، فاصطدمت بجدار يكاد ينهدم أصلاً حين هرب العساكر المحيطين بنا، وظللنا وحيدين والرصاص ينزل كالمطر دون أن يعرف طريقه..

يقول تولستوي: إن الشخص الذي لديه فكرة خاطئة عن الحياة ستكون لديه حتماً فكرة خاطئة عن الموت.

كل ما كنت أعرفه عن الموت في طفولتي هوذاك المشهد حين ماتت والدة صديقي في مراحل المدرسة الأولى حين وقف على باب الدار الحديدي مسنداً ظهره إلى الحائط يودّع أمه المحمولة بنعشٍ خشبي على أكتاف الرجال، ثم قال لي: هيّا لنلعب.. أمي لن تعود اليوم إلى منعنا من اللعب!!

كانت تلك مواجهتي الأولى مع الموت بعد حضوري الجغرافي لوفاة جدتي عائشة، من يومها تشكّلت أمامي صورة للموت بأنه يحرم الإنسان من العودة لمنزله كما يمنعه من الطعام والشراب وممارسة الجنس وضرب أولاده، ربما كنت أخاف أن تظهر أمّ صديقي الطفل من قبرها يوماً وأنا أعبر محاذاة المقبرة الجنوبية لقريتنا، لذلك تشكّل لدي ما صرت أسمّيه فيما بعد: فوبيا المقابر!!

في الحقيقة أن تكون مواطناً عادياً في سوريا فأنت حتماً تعيش فوبيا من أمر ما، ربما تكون البطالة بعد التخرج، وربما الحصول على بيت، وربما مكافحة الواقع كي تعيش كما الآخرين في دول تحترم نفسها ومواطنيها وبالدرجة الأولى. كانت هناك فوبيا من الدولة بكل مكوناتها، فهي البعبع الكبير الذي يمسك بالعصا للمواطن العادي، فيما بعد من سنواتي سأكتسب بحكم المجتمع الكثير من أنواع الفوبيا التي تتعلق دوماً بأشكال الحرية والتعبير التي تقف سيارة الشرطة على أي طريق يؤدي إليها!!

الآن لي مواجهة أخرى حقيقة مع الموت، لا أعرف كم رقمها، لكني متأكد أنها حقيقة، العساكر هربوا من الباب الخلفي مباشرة بينما كانت

تتأرجح على الشارع حين مقتل قائدها برصاصة، ربما كانت طائشة، وربما كانت تعرف طريقها إلى صدره، السيارة تستند بمقدمتها إلى حائط يكاد يكون قائماً، بينما ظللنا أربعة أشخاص ننظر إلى وجوه بعضنا، مباشرة في العيون، وكأننا نسأل بعضنا ماذا سنفعل الآن ونحن محنيين تماماً إلى أرض السيارة، ورائحة الدماء باتت تخترق أنوفنا من الرجل الذي صاح قبل قليل بالتكبير، خطرت لحظتها فكرة ببالي، ربما هي فكرة للجنون لا أكثر، لدفع الموت عنّا بعد أن هرب العساكر بطريقة الزك زاك السريعة، خلعت قميصي الداخلي ورفعته من باب السيارة الخلفي معلناً استسلامنا إلى من لا نعرف، فإلى هذه اللحظة مصدر الرصاص مجهول لنا نحن الأربعة.. صرت أرفع قميصي الأبيض وكأني أريد أن أزرعه بالسماء كي يروه ليتوقف الرصاص..

لا يتوقف الرصاص فأعود إلى مكاني مستسلماً لمواجهة الموت القادم عبر أي قذيفة.. صوت الرصاص الذي يصطدم في الأرض يحدث موسيقا رهيبة من المؤكد أن لا أحداً يجيد الاستماع لها أوحتى التفكير في جمالها، كما تلك الضربات المتتابعة التي تحدثها على هيكل السيارة بشكل متتابع دون أن تثقبها، والوقت يمر ونحن جلوس في قلب السيارة التي خفت حقيقة أن تنفجر في أي لحظة، والموت يحاصرنا من كل اتجاه، بل يقعد معنا في السيارة!!

اقترح أحدهم أن نخرج منبطحين زاحفين على الأرض إلى الحائط المقابل، وبسرَعة البرق كان أوّلنا يتدلّى من باب السيارة الخلفي ليمسك الأرض بيديه، بينما اصطدم وجه الثاني بالأرض حين هبوطه، وبدأ الزحف كأفاعي تموّه نفسها عن صيّاديها المفترسين، نزحف خلف بعضنا، بينما كان الرصاص يتطاير حولنا دون أن يصيبنا، إنها لحظة فارقة بين الحياة والموت،

بين الرغبة بالاستمرار، أوالاستسلام للرصاصة التالية، خمسة أمتار تساوي الحياة بطولها وعرضها، فالاحتمالات تبقى مفتوحة على الموت مهما حاولنا الزحف والاختباء بثيابنا، لحظات بحجم العمر كله تمر في المسافة الفاصلة بين صدري والأرض، بينما عيوني مسمّرة إلى الأمام دون أن ترفّ برغم كل الغبار..

- يالله يا شباب..
- وصلنا.. وصلنا..
- الله أكبر..

نحتضن بعضنا بعضاً، وكأننا نتأكد مَن أننا أحياء لا أكثر، وصوت الرصاص لم يتوقف حولنا..تمنيت في بعض اللحظاتلو أنني كنت في حلم كي أفيق، لكن لا سبيل فكل ما حولي يشي بالحقيقة الراسخة هنا نحوالموت طرداً للحياة التي كانت..

خلال الحرب تنشأ الصداقات سريعاً كما العداوات، فكلها تتبع للجهة التي تقف فيها، نتعارف سريعاً لأتفاجأ أن أحدهم أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب، في الحرب لا قيمة للشهادات التي تحملها، فالرصاص لا يفرّق بين متعلّم وغير متعلّم، لم أسأله لمَ لم يغادر مثل كثيرين فإنه سؤال عبثي في مثل هذا الوقت..

في زيارتي الأخيرة للأردنتناقشت وزياد في صومعته الصغيرة المطلّة على حيّ خلدا في العاصمة عمان عن مفهوم الحياة ومعناها عندما تسير مجنزرات الجيش ودباباته فوق أجساد البشر، هل تبقى الحياة بمفهومها عندما تتم مراحل تنفيذ القتل دون خوف أوعتاب، وحتى دون أن يطلب القتيل أمنيةً

أخيرة، كانت الحياة وقتها عند زياد أكبر من تفاعلات كيميائية واستقلابات بيولوجية، وشيء من أمر ربي لا ندركه يسير بأجساد مصنوعة من صلصال وطين، إنها قيمٌ وأخلاقٌ وحبٌ وتسامحٌوعدلٌ وصدقٌ وأمانة، بينما كنت أراها أثمن الأشياء المختزنة في حرف الحاء من حبٍّ وحريّةٍ وحزن وحنان، فهل بإمكان الحب أن يوقف القتل ويفرض نقطة لفك الاشتباك والارتباط ليفكّر القاتل بالقتيل، وينظر القتيل إلى قاتله قبل الموت ليعيش الأول ما تبقى له من حياة محصوراً بصورة الوداع الأليم وسؤال كبير: لماذا قتلت؟؟لأجل أيّ حياةٍ قتلت؟؟

- بزي سوريا آزاد وسرفراز.. يا الله..

صاح أحدهم قبل أن ينطلق القصف من جديد، قالها بالكردية فخرجت من أعمق وأصفى نقطة في روحه وأتبعها بالعربية الفصيحة مباشرة..

- لنذهب إلى مركز قرطبة فهوتحت سيطرة الجيش الحر..

كان مركز قرطبة يقع في حي صلاح الدين، وعلينا أن نقطع بعض الشوارع الرئيسة التي يسيطر على بداياتها الجيش، فركضنا بجوار الجدران، نعلوونهبط بحسب الردم كهذيان شاعري اللون، وصور الموت تعلوجباهنا ورؤوسنا، فصرت أشعر بأننا الزوار القادمون إلى السماء، وأن طريقنا إلى القبر كان أقرب من قرطبة.برغم الموت ترفض حلب أن تخلع عباءتها الكبيرة العظيمة، فلم يزل فيها صلاح الدين بعد رحيله، والحمدانية بعد رحيلهم، وقرطبة بعد خروج العرب منها، ولم تزل فيها ساحة التظاهر التي كان يتجمع بها شباب حي صلاح الدين حيث حفِظَ الهواء أصواتهم كي ينقلها عبر ذراته إلى أجيال قادمة ستسكن هذا المكان بعد ترميمه يوماً!!

بعد أن قطعنا كل المسافة، إلا شارعاً واحداً، وقفنا ننظر إلى بعضنا بعضاً، نسترق السمع إلى نبضات القلب وتسارع النفس في الشهيق والزفير، كانت جبهة الرصاص قد سكنت قليلاً حين قطع الأول والثاني وكنت الثالث أنا، بينما ظلّ الكردي خلفنا منتظراً وصولنا إلى الضفة الأخرى متتابعين، وحين أشرنا له بالانطلاق إلينا انطلقت رصاصات كالمطر السريع لتصيبه واحدة برأسه وأخرى بساقه، فيسقط فوراً وسط الطريق مع ارتفاع صيحاتنا، فماذا لوظلّ أحدنا أخيراً مكانه؟؟

قال أستاذ الجامعة

- اتركوه مات..
- الله لا يخليني اذا بخلّيه..

أجلس عليالأرض ماسكاً رأسي بيديّ، مقاوماً هطول دموعي، فهذا ليس وقت البكاء، إنه وقت الحرب العمياء التي تأكل السوريين مثل حيوان برّيٍ عاش حياته في أدغال أفريقيا، حرب دون مجتمع للحرب، حرب دون خطوط أمامية للجبهة ومتأخرة لإسعاف الجرحى، حرب بأهداف مختلفة بين كل طرف، حربٌ دون خططٍ يتداولها المتحاربون ويزرعونها في الصدوروالعقول، حربٌ بنتيجة واحدةٍ فقط هي سقوط ضحايا أبرياء وتدمير الوطن!!

في الحرب تتّحدُ المصائر وتختلف الطرق، فربما تصادف أشخاصاً في جبهةٍ مفتوحةِ الاتجاهات ليصبحوا رفقاء لك في المصير دون أن تعرف تاريخهم أوعلاقاتهم أوحتى اتجاهاتهم قبل اللقاء، فهل الحرب كما الحياة تحتاج إلى رفقة؟؟

سأتذكَره حين أمشي فيما بعد خلف الأموات بلا نعوش لأشخاص مجهولين ماتوا تحت القصف قبلدفنهم، هكذا هي الحرب، تسير بجنازة ليست لك، وتدفن شخصاً لم يكن يتوقع أن يراك يوماً، وربما تحمل طفلاً لم يجمعك به أي شيء سوى الجغرافية، هي الحرب ولا عجب..

كاد الدم يخرج من أيدينا ونحن نطرق على باب مركز قرطبة ولا مجيب، كانت كل المؤشرات تقول إن هناك انسحاباً تكتيكياً قد وقع لأنه أقل الأضراركما قيل في البيان الذي سأراه لاحقاً عبر شاشات الأخبار، لحظتها أخذت قراري بالعودة إلى تركيا بعد التطورات اللاحقة، فربما أعود فيما بعد كي أنجز ما أريده من أفلام مرةً أخرى، فالتزم معي أستاذ الجامعة بتوصيلي إلى أقرب نقطة أستطيع من خلالها الخروج عبر ممر آمن إلى الحدود، مشينا عبر طرقات ملتوية، حيث أطفال يلعبون رغم كل شيء، ورغم الموت الطارئ على مدينتهم، وبينما كنا نتجاذب أطرافاً من الحديث عن الوضع العام في البلاد انطلقت صواريخ مدويّة شعرت بأنها وقعت بأذني لتحدث ضجيجاً يتلوه غبارٌ عمّ المكان، لقد تم قصف البنايات الست التي بجوارنا!!

أصيح لفوري:

- اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم..

الفصل العاشر

المشهد الأول

ممر طويل يسحبوني فيه من كتفي لتتدلّى قدماي على الأرض زاحفةً باتجاه غرفة التحقيق في زاوية المبنى، لأكون بعد لحظات في حضرة رجل يكبرني من العمر بعقد كامل، أوأكثر، وحوله رجال تلحّفوا بالوجوم، وبدون أيّ مقدمات قال:

- عرفنا أنك صحفي، وكنت عايش برة البلد ودخلت من كم يوم... من وين دخلت وكيف وصلت على اللطامنة؟؟ ومع مين عم تشتغل؟؟

- ما عم اشتغل مع حدا..

- قول سيدي... يا كلب..

يصيح أحد الواجمين بجانبي..

- ماعم اشتغل مع حدا يا سيدي..

ضربة مسرعة اجتاحت رقبتي بينما انشغلت قدمانِ بالضرب على ساقيَّ، فهويت على الأرض جاثياً على ركبتيَّ، وبحركة مباغتة وضع أحدهم عصاه في خاصرتي اليسرى لتسري في جسدي قشعريرة كما لو أنك سكبت فيها ماءاً

دافئاً، ارتعشت عدة مرات متتالية بفعل الكهرباء الناتجة عن عصاه، تكوّرتُ على جنبي ليصبح رأسي بموازاة ركبتيّ لتأتيني ركلة بالحذاء العسكري على وجهي لأرفعه بعد أن أصبحت الدماء تخرج كنافورة من أنفي..

لا دواء هنا إلا إجابات شافية له كي يسجّل في محضره انتصاراً على بقايا معتقل لديه لا يملك من أمره شيئاً..

في التحقيق عليك أن تتفهّم نفسية الرجل الأقوى الذي يملك الأمر كله في البقاء أوالانصراف، فإما أن تروّضه وتأخذه في دروب يسير بها كما تريد دون أن يقاومك، أوأن تفشل أمامه بمقاومتك له وعنادك الدائم، وبهذا تضمن لنفسك مزيداً من الإهانات، كان عليّ أن آخذ قراري السريع لأكون بالضفة التي تضمن لي البقاء على الأقل..

- ياسيدي.. الله وكيلك أنا مومع حدا.. أنا جاي أشوف أهلي!!
- كلب ولاك.. اخراس يا حقير.. والله لخليك تستنجد بالسما يا عرص..

أنهى كلمته الأخيرة بإشارة لأحد الواقفين بالذهاب، وماهي إلا دقائق حتى أحضر أحد أصدقاء طفولتي بحالةٍ يرثى لها، حين وقعت عيناه على عيني حاولت احتضانه برموشي، فقد مرّت أيامٌ لا أعرف عنه شيئاً بعد أن حصل الانفجار الكبير وضاعت الرجالحين تم اعتقالنا على الطريق في رحلة الهروب الأخيرة، لقد اعتقلوه إذاً!!

أحمد..

شابٌ مفعمٌ بالحيوية والنشاطكان يعشق الحب بكل طقوسه، فما تراه إلا عاشقاً متيّماً يقسِمُ الإيمان والمواثيق في كل نهاية أسبوع أن هذا حبه الأخير

والوحيد، يحاول دوماً أن ينفض الغبار عن قلبه كي لا يشعر بالصدأ، تسع وعشرين عاماً قضاها أحمد في الحب، كاملة كما هي دون أن تنقص، ثم جاء به القدَر ليقاتل لأجل الحب كما قال لي حين رأيته يحمل السلاح أوّل مرة.

تعود علاقتي بأحمد إلى الطفولة الأولى، إلى مراحل الإدراك التي اكتشفنا بها هذا العالم الواسع من حولنا، لقد تغيّر كثيراً بعد لقائنا الأخير، في الحقيقة كل شيء في هذه البلاد تغيّر، أوتعرض للتغيير بالقوة خلال العامين الماضيين، خاض أحمد عدة جولات في لجان التنسيق المحلية قبل الاتجاه العام للعسكرة والتنظيم المسلّح ليكون أحد أهم أعمدة الكتائب التي قاومت كل الاجتياحات التي ضربت المنطقة وما يجاورها في الريف الشمالي لحماه، التقيته صدفة في اللطامنة حين وصلت ونيكولاس لإجراء تحقيق طويل عن حقيقة ما حدث في القرية الصغيرة في خاصرة الريف الشمالي أثناء المجزرة الشهيرة التي حدثت بها منذ أشهر..

أحمد كان يسعى لتوحيد الكتائب كلها تحت اسم واحد وراية واحدة، لكن ظروف المعركة كانت أقوى منه وأكبر، والامدادات الخارجية كانت تفرض قوتها لتحدث تغييراً في كل الاتفاقات التي تعقَد بين ليلة وضحاها، حين التقيته شعرت بأني أسترجع جزءاً من تاريخي، من خلايا جسدي التي فقدتها في انسلاخ الجلد عني خلال ما رأيته من أحداث متتالية، ثلاثة أيام فقط كانت تجمعنا عدنا خلالها إلى الساعات الأولى، والمواقف الأولى، والتجارب الأولى، وقصص الحب الدفينة التي تنتظر حدثاً عابراً كي ترقص فرحاً بعودتها برغم كل الظروف..

يقف أحمد أمامي الآن مكبّلاً وصورته الحرة لا تغادر مخيلتي أبداً وبإصرارٍ يقول:

- نعم يا سيدي.. صديقي صحفي كان جاي ليعمل تحقيق عن اللطامنة!!!

جمد الدم في عروقي وصرت بالكاد أستطيع أن أسحب نفسي إلى رئتيّ..

المشهد الثالث (خطأ مقصود)

كيف لك أن تسير في مدينة كل المدافع فيها تنظر إليك، وكل البنادق مستعدة لاعتبارك هدفاً، كل العيون ترصدك وعليك الهرب كي لا تقع في شباك الموت، كل الأطراف أنت لا تنتمي لها، وبودّك لوتلقي بهم في البحر جميعهم كي تعود المدينة إلى صفائها القديم قبل نصف قرن من الزمان، ما أصعب أن تشوَّهَ مدينةٌ هكذا لتخرج أمام الجميع بوجه غير وجهها وجلد غير جلدها وعباءة غير عباءتها؟؟

حين تمشي في حلب تقرأ التاريخ بكل لغات أهل الأرض، فكل من مرّ فيها ترك لها أثراً يدلّ عليه كي لا تنساه، وهي كعاشقة احتفظت بأسرارها، كانت تخبّئ كل تلك الهدايا الثمينة طوال مئاتٍ من السنين المتعاقبة، ربما لم تتوقّع المدينة يوماً أن تصير مهبطاً لكل أنواع القذائف بعد أن كانت معبراً لكل القوافل، وأن تستبدل فرسانها التاريخيين بآخرين قادمين من كل حدبٍ وصوب!!

إنها الحرب ولا عجب، إنها حلب ولا عجب!!

قبل أن نغادر مركز الليرمون الطبي قال مرهف لي خلال توصيفه لبعض ما يجري عبر عواصم العالم:

- "احترزوا الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، لكنهم من الداخل ذئاب خاطفة! من ثمارهم تعرفونهم".

حقيقة لم أفكّر وقتها بهذه العبارة، لكنني سأقف أمامها مرة أخرى حين أعبر ونيكولاس بعض القرى التي تتوزّع في الطريق إلى اللطامنة، حيث رأيت بعض السيارات التي يعتليها أشخاصٌ يحملون مساعدات لهذا الشعب المنكوب، وسأتذكّرها حين تأتينا أنباء القصف المتواصل على الليرمون بعد مغادرتنا بأيام حين يتم بثّ شريط لأحد قادة المعارضة السياسية وهويطوف في شوارع الليرمون، بعد أن دخل خلسة وخرج خلسة، واطمأنّ أنه صار في غرفته الفندقية ليعطي أوامره ببثّ المشاهد التي تضمن له شهادة بالرجولة أمام غيره ممّن ينافسوه!!

اقترحت على نيكولاس أن نذهب إلى الهيئة الشرعية لعلهم يساعدونا في تأمين الطريق إلى اللطامنة، ففي هذه الأوقات في سوريا لا يمكن أن تمشي في رحلة دون تأمين على الحياة من طرفٍ له حضوره وسطوته وارتباطاته على الأرض..

أكتب هذا وأنا أتذكر طفولتي الشقيّة حين كان اليأس يسكن بين جنبات المنازل، ولا مفر من الألم إلا بأملٍ تزرعه حيث تشاء، فربما يزهر يوماً كما تريد، غريبة هي الحياة بكل تقلباتها، فحين تقبل أن تكون في زاوية تختارها تعاندك لتنقلك حيث تريد هي لتكتشف فيها بعد أن خيارها لم يكن دوماً

يستحق ذلك العناء، ولتسمي نفسك ابن الأمل، فلا شيء في هذه البلاد يستحق الانتظار سوى الأمل..

غرفة كبيرة، يدخل قبلنا المرافقون الذين أمرهم أبوسالم بأن يكونوا معنا، أنتبه لعلم التوحيد مرسوماً على الحائط خارجاً، فأشرح لنيكولاس أننا الآن سندخل في حضرة جبهة النصرة، شعرت للحظة أن هناك خوفاً انتابه للحظات ما لبث أن ذهب حين ولجنا الباب لنجد أنفسنا في حضرة الأمير أبوسالم، وبعض الرجال الآخرين الذين يحيطون به مستمعين مباشرة إلى المقبض اللاسلكي، يتابعون كما لو كان بياناً عسكرياً سيشرح كل ما ستحمله الساعات القادمة، استطعت أن أفهم بضع كلمات، فرسمت الصورة الكاملة لعملية مداهمة مزرعة أبي ضرار، وإلقاء القبض عليه على طريق المطار، وما هي إلا نصف ساعة حتى جلس أبوضرار في حضرتهم أيضاً ليعترف أنه صادر أنابيب الأوكسجين لبيعها في السوق السوداء بعد أن قام بتسليم الجبهة الجنوبية كاملة لضابط القطعة العسكرية المجاورة مقابل خمسة وثلاثين مليون ليرة سورية الأكسجينو أنه غادر إلى تركيا عدة مرات لبيع سيارات قام بمصادرتها من مدنيين رحلوا عن المكان!!!

في البداية رفضوا وجودي ونيكولاس وطلبوا مني المغادرة إلى مكان آخر، وبعد أن رجوتهم وأقسمت الإيمان بألاّ أتحدّث بما سأرى سمحوا لي بالبقاء انطلاقاً من ايمانهم بالشورى، وضرورة تحقيق العدالة واشهارها، لكنهم أصروا على أن يذهب نيكولاس إلى مكان آخر!!

غادر الرجل وبقيت، أنا لأشهد تلك الاعترافات!!

أي قدرٍ أحمق جاء بي إلى هنا كي أرى صورة أخرى للمقاتل لم أتوقّع يوماً أن أراها، كيف لمقاتل أن يتاجر بالدماء؟؟كيف لمقاتل أن يبيع رفاقه بالسلاح؟؟كيف لمقاتل أن يخون تراباً انتمى له يوماً؟؟إنها انتهازية الحرب ولا عجب..

لحظات ويكون كلّ شيء جاهزاً للبدء بتنفيذ الحكم..

- أنت مدان بالسرقة والخيانة والتواصل مع العدو، وقد حكمت عليك الهيئة الشرعية بالإعدام..

لحظات أيضاً وتنطلق رصاصة لتستقر في رأسه ليغادر الحياة بعد أن يطلِق أيضاً صرخة مدوية وكأنه يتمسّك بالحياة حتى وصول الموت..

حين علّقت على هذه الحادثة في سؤال وجهه لي نيكولاس، وهويعِدّ تحقيقه الصحفي عن حوادث مشابهة، طرحت إشكالية حول رمزية البابا في الفاتيكان، الذي طرح محاكم التفتيش لمحاربة المرتدين والمخالفين، بينما استخدمها الملك الفرنسي لمحاربة فرسان الهيكل، فهل نصّب هؤلاء أنفسهم كقضاة بمحاكم ثورية يطلقون أحكاماً على الناس دون مرافعات، ودون إعطاء الفرصة للمدان كي يدافع عن نفسه لدفع الموت بعيداً؟لم أقصد وقتها محاكمة أبي ضرار الخائن، بل كان الحديث عن بعض الروايات التي تواترت لنيكولاس من مناطق أخرى قبل وصوله لحلب عن قيام الأمير بجلد رجل تزوّج من امرأة خلال قضائها فترة العدّة الشرعية حداداً على زوجها الذي مات في القتال، وعن رجال قاموا بمصادرة حمولات من الخمر واتلافها، وآخرين سارعوا إلى حرق دار السينما الوحيدة في المدينة، بينما منعوا

الناشطين من عروض مسرحية في المراكز الثقافية الموجودة في مناطق نفوذهم..

كانت مواجهة للموت مرة أخرى حين مات أبوضرار في محيط وجودي، تراجعت خطوتين إلى الوراء وكأني احاول الهرب إلى الحياة باتجاه الغرفة المجاورة حيث نيكولاس يجلس متأهباً بعد أن سمع اطلاق الرصاص..

لحظات ويأتي أبوسالم لأعرض عليه فوراً طلبي بتأميننا للوصول إلى اللطامنة بعد أن شرحت له كل ما نريد فعله هناك، ربما لرغبته بالتخلص منا وافق على الفكرة بعد أن طلب التريث يومين أوثلاثة ريثما يتم ترتيب الأمر..

كانت فرصة أخرى لأقترب من المجموعة التي تتواجد دوماً في الهيئة الشرعية، التي تقع في حيّ عادي، كي لا تثير الشبهات، في الحقيقة هذه المرة كان أكثرهم من الشباب السوريين، ففي الليلة الأولى لفت نظري شاب يقارب الثانية والعشرين من العمر، له لحية تكاد ترسم خطّاً رفيعاً على خديه، يتمتم دوماً بكلمات بالكاد مفهومة هي عبارة عن دعوات متواصلات لله العظيم كي ينصره ويهبه ما يريد، قبل النوم كان يقرأ من القرآن الكريم بصوت أقرب للهمس كي لا يزعج نيكولاس، الذي لا يفهم العربية مع أنه كان يتعامل دوماً بحرص وتأدّب حين يلاحظ أن هناك أموراً تتعلق بأداء الفروض الدينية أوالنوافل..

- "وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون * لَهَم دَار السلام عِندَ رَبهِم وَهووَلِيّهم بِمَا كَانوا يَعمَلونَ".

لفتتني هذه الآية في سورة الأنعام التي كان يقرأ منها، فانتظرته حين أنهى لأسأله:

- هل أنت على الصراط المستقيم الآن؟؟

- طبعاً بالتأكيد..

وراح يشرح لي عن ثواب الجهاد وفضله وضرورته لنجاة الأمة ونهضتها، كنت أتابع كلماته باهتمام فهذه اللهجة أعرفها تماماً، وجاء جوابه مطابقاً لتوقعي حين سألته عن مدينته، فتعارفنا ليقول لي إنه كان يدرس هندسة العمارة، لكنه تخلّى عن حلم الهندسة والبناء في سبيل أداء الواجب المقدّس، وضرب لي مثالاً عن ضرورة عدم التقاعس في أداء المهمة العظيمة بأبي سالم، الذي حارب في أفغانستان والعراق ومخيّم النهر البارد، ولم يتردد لحظة بالقدوم إلى حلب بعد خروجه من معتقل صيدنايا الشهير في بداية الثورة كما قال!!

- لن نرتكب خطأ أهلنا الذين أشاعوا بيننا أن العدوقوي ومتمرس، وسيقتلنا ويأكلنا بلا هوادة ولا رحمة ولا شفقة!!

- يا صديقي.. ألم تقل إن أبا سالم كان معتقلاً في صيدنايا؟؟فكيف للنظام أن يطلق سراحه في حالة حربه ضد الثوار؟؟

- لقد خافوا منه داخل المعتقل لأنه كان يقود الاضرابات ويهدد بالسيطرة على السجن!!

- أيطلقون سراحه ليكون مقاتلاً ضدهم؟؟

- هوخرج بعد أن أعطاهم مواثيق بعدم القتال، وهؤلاء ليس لهم عهد ولا ميثاق.. ومن ثمّ أتشكك بنزاهة الأمير؟؟

- لا لا أبداً.. على العكس، أبا سالم على راسنا!!

كان نيكولاس قد شارف على الانتهاء من كتابة تحقيقه الذي كان يعمل عليه، فسألني بعض الأسئلة، وخلدنا للنوم بعد أن أرسل المادة كاملة إلى الجريدة التي يعمل بها..

صوت نيكولاس يعود ليكسر الصمت المطبق في الغرفة الظلماء ليسألني عن الصحفيين السوريينوتعاملهم مع انطلاقة الاحتجاجات في سوريا، في الحقيقة كان الأمر يستحق عناء مقاومة الرغبة في النوم للحديث عن الصحفيين السوريين، حيث كان لزاماً علينا أن نتعامل مع الأخبار القادمة بحيادية مهنية مطلقة لنردد أرقام الموتى كل يوم دون التوقف عن صلتنا بهم أوذاكرتنا معهم، وحتى دون أن نقول إن هناك بين الموتى من كان جاراً لنا أوصديقاً أوزميلاً في العمل أوالدراسة يوماً، ودون أن نتوقف أمام صورة لجثة كانت لمعلم وقفنا ذات يوم مرتعشين أمامه لعدم انجازنا الواجب اليومي، أتحدث لنيكولاس كيف كان علينا أن نقف أمام حاراتنا من بعيد، ونقول إن قصفاً يأتي على الحارة الغربية من مدينة كذا دون أن نتلمس أوجاع ذاكرتنا من حيطان صور سكنت فيها قصصنا وخبايا نفوسنا، نتحدث عن تدمير بيوت دون أن نروي إن كنا زرنا هذه البيوت يوماً أم لا، ودون أن نتقاطع مع المشاهد الذي غالباً ما يطيح بكل المشهد عبر ضغطة واحدة على زرٍ في جهاز التحكم..

غالباً ما كانت تلك تفاصيل تافهة بنسبة رؤسائنا في العمل، فالمشاهد لا يعنيه إن كان هذا البيت لك أولغيرك، إن كانت تلك المظاهرة التي أبيدت عن بكرة أبيها فيها من أهلك أومعارفك، أنت الصحفي الذي تنقل له

الخبر!!، كل ما يعنيهم كان نقل الرقم النهائي للحصيلة اليومية لقطار الموت، فالمشاهد يكتفي أيضاً برقم يضيفه إلى تقويم أيام في موت السوريين ليقرأ في نشرة المساء على الشريط الإخباري:

قُتِل اليوم **245** سورياً في مناطق مختلفة من محافظات سوريا..

الآن أستطيع أن أتفهم تلك الحالة التي انتابت المخرج سليم الفلسطيني القادم من غزة عبر رحلة عناء طويلة حتى وصل إلى الساحل المطل على الخليج العربي ليجد فرصة عمل أيضاً مطلع عام **2008**، حيث عملت معه خلال الحرب على غزة، لا أنسى تلك الليلة التي اشتد فيها القصف على مخيّم خان يونس في القطاع، وانقطعت كل وسائل الاتصال بينما كانت أرقام الموت تعبر لنا بطرق سرية لتصلنا عبر مقاطع مصوّرة تروي قصة الموت المعلن للقطاع المحاصر من الجميع!!

في تلك الليلة كان سليم ينقل للعالم أجمع عبر شاشة إحدى الفضائيات موت شعبه كي تتفتح العيون كل العيون على المأساة التي جاوزت كل الحدود، وكنت أجلس إلى جواره كمنتج أول للنشرة الرئيسة ليلتها، حين وصلتني بعض المقاطع الجديدة للموت، فوضعتها فوراً كمشاهد حية تتم اضافتها بين خبرين أوخلال استضافة معلّق عبر العواصم العربية ليحكي عن الموت الدائر هناك، فيندد ويشجب ويستنكر لا أكثر، أذكر أني مرّرت ورقة لسليم عن وجود الصور المرفوعة كي يضعها في الخبر التالي، ولم أكن أدري أني أنقل له خبر موت أمه!!ما إن وضع الصور على الهواء وبدأ يراقبها حتى ظهرت صورة أمه مقتولة خلال القصف فصرخ بأعلى صوته قائلاً:

- يمّا.. يمّـــا.. يمّـــــــــــــــــــا!!

كانت تلك الصرخة وحدها إعلان موتنا.. لقد متنا من قبل، لكن لم نشعر أن ذاك الموت كان موتنا، لقد متنا منذ خمسة وستين عاماً، ومن يومها ونحن نكرر الموت لا أكثر..

كنا نصوغ أخبار موتنا كما يريد أن يراها المشاهد ليتلقى خبر موتنا- نحن-كل يوم عبر شاشة الفضائيات العربيةوهومتمدد على أريكته يتابع حسابه الشخصي على مواقع التواصل الاجتماعي عبر هاتفه الذكي، هكذا كان حالنا نحن الصحفيين السوريين يا نيكولاس!!

ربما لم تكن تعنيه تلك التفاصيل إطلاقاً، لكنها أثارت لديّ جانباً خفياً لم أكن أراه، فرُحت أتذكر كيف كنت أشرح لبعض الزملاء من المغرب العربي آلية نطق أسماء القرى السورية كي تأتي بشكلها الحقيقي في أذن المتلقي الذي عادة ما يستغرب هذه الأسماء ويستهجنها!!لكنها كانت ضرورية ليكتمل مشهد الموت الأخير!!

في الصباح أستيقظ باكراً على إيقاع القصف الذي لم يهدأ، كان شعاع الشمس يتسلل إلى خلايا الغرفة عبر شقّ الباب الصغير ليحدث أملاً بدّد كل الكوابيس المزعجة التي هاجمتنا طيلة الليل، قبل أن يستيقظ نيكولاس رحت أفكّر فيما لوحاولت أن أرسم حلمي، أيّ لوحة ستكون؟ ؟رسم الحلم كان مادة أساسية في التحقيق بعد أسابيع في غرفة مظلمة أخرى تبعد عن هنا أكثر من مائة وعشرين كيلومترا، سترتعش أصابعي خائفاً من أن يرى الآخرون حلمي حين يأمر الضابط برسم الحلم!!

كان من المتوقع أن نغادر خلال يومين إلى اللطامنة عبر الطريق الزراعي الذي تمّ إنشاؤه قبيل انطلاق الاحتجاجات في البلاد، فاقترحت على

نيكولاس أن نذهب باتجاه قلعة حلب لعلنا نلتقط لها بعض الصور الأخيرة فالأجواء كلها كانت تشير إلى النهاية هناك، وكنت أخاف ألّا نراها ثانية أبداً، ربما هوترفٌ في الحرب أن أفكّر بزيارة مكان تاريخي خلال القتال لكنها فرصة لا تتعوّض، انطلقنا برفقة شاب عبر طريق بين الحارات الحلبية لنصل إلى القلعة، وقد بانت علينا من بعيد فاقتربنا منها كغزاة نقسم على الأرض أننا لن نؤذي أحداً، بينما اضطربت الطبيعة كي تتيح لنا مرقداً هناك..

لم أزر القلعة أبداً قبل هذا اليوم، لكنني كنت أعرف الكثير عن تاريخها، فرحت أتحدث لنيكولاس عن إرثها العظيم عاصراً كل ما أستطيع استحضاره من ذاكرتي حولها، فهي من أجمل وأبدع القلاع وأكبرها، ولحجارتها تاريخ حافل بالأحداث، خاصة حين اتخذها قادة كثيرون قاعدة لحكمهم، فكانت مركز الأحداث بالشرق كله.

مرّ عليها الآراميون والبابليون والآشوريون والرومان والبيزنطيون والعرب المسلمون والحمدانيون والسلاجقةوالزنكيون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون والفرنسيونوالعسكر الانقلابيون وحكم البعث، كلهم مروا عليها وبقيت صامدة، وربما كانت عيناها ترقب أولئك الذين يمشون بحذر على هامش سورها الكبير دون أن يدخلوها، ربما كان أولئك أهم من مرّ عليها فهم وحدهم الذين أحبوها دون أن يؤذوها!!

لا أتذكر كيف ترجمت الجملة الأخيرة بحزم وكأني كنت أقصدها فعلاً، يقفز أمامي الآن لوي باستير الذي قال كأن المصادفة قد ظهرت فجأة لإنضاج العقول!!فهل قدومي ها هنا كان صدفة كي ينضج في عقلي اتجاه

جديد للتفكير لم أكن أره من قبل أوحتى أشعر به؟؟ ربما فهي الحرب التي تُخرِجُ منّا كلّ ما لا نتوقع وجوده أصلاً!!

للحرب لونٌ واحد فقط، ففي جولاتها تصبح الألوان كلها سوداء، مرة أومرتين تلك التي اقتربت فيها من القلعة خلال فترة اللا حرب واللا سلم، ففي نهاية 2002 سألت حبيبتي الأبدية عن رغبتها الأخيرة قبل بدء العطلة الصيفية لعامنا الدراسي، ووعدتها جازماً أن أفعل لها ما تريد!!فكان أن زرنا حلباً في نهاية الليل، كانت مجازفة أن تزور مدينة برفقة أنثى لا يربطها بك إلا علاقة حب..

فيما بعد فهمت أنّ المدن العربية في الليل تخلع لباسها، وترتاح من تقاليدها عند غياب الشمس، فليل المدينة غير نهارها، والشمس فيها أجمل من سواها حتى الظلام، في ليل المدن العربية ينام الكادحون ويفيق المرتفعون على أكتافهم ليبرموا الصفقات، ويعقدوا الاتفاقات، ويخططوا لأولئك النائمين نهارهم الجديد وسنينهم القادمة، في ليل المدن العربية ترسم الحياة لوحة أخرى لا تراها الشمس صباحاً، فقد قيل في تراثنا العربي القديم إن كلام الليل يمحوه النهار، لقد صحّ هذا القول يوماً، لكنمنذ عامين توقّف العمل به، فالليل امتداد للنهار، والنهار امتداد لليل طويل يستمر فيه القتل والذبح والموت بكل الطرق..

ليل المدن العربية له علاقة جدلية بالمواطن الذي يسكن تحت أنظمة العسكر، فهويتعلق بالمرحلة العمرية تماماً، فالطفل يعني له الليل خلاصاً من المدرسة، وللشاب هوسكنى للعاشقين، وللطالب هوواحة للدراسة، وللعابد هوفسحة للتأمل، بينما كان للعسكر عبارة عن ساعات طويلة

للتخطيط لجرائم النهار.قلت لها ذات يوم مسروق من الزمن بقرب قلعة حلب في رحلتنا اليتيمة تلك: إنهم صادروا معنى الليل في وطني، فقانون الطوارئ لا ينام!!

دائماً في الحروب هناك متسعٌ من الوقت لبعض الحب، وربما كثيره، فبرغم كل التعب والإرهاق سنتوقف في إحدى القرى الواقعة على الطريق إلى اللطامنة لنشهد زواجاً بين مقاتل في الجيش الحر، وممرضة تركت دراسة الأدب الفرنسي في جامعة حلب، وتطوعت لعلاج المصابين، يومها همس في أذني نيكولاس وهويتابع مراسم الزواج وطقوسه:

- الزواج في زمن الثورة سيأتي بجيل متمرد!!

أن تقف أمام تاريخك وجهاً لوجه أمر مثير حقاً، فما بالك وأنت تسير في شوارع كانت كل مدن الدنيا تؤدي إليها، وصارت اليوم تلك الطرق باتجاه واحد إلى خارج الوطن، لكنني أشعر بأن هناك حياة أخرى ترويها هذه الأحجار برغم تهدم الجزء الغربي من سور القلعة المرتفعة، لكنّ الروح فيها لم تزل تتنفس، حتى الجراح لم تزل تحكي عن سيوف وخناجر ومجانيق ومدافع ورشاشات ودباباتوعسكر!!

كنّا مواجهة الثغرة حين سمعت نداء عبر القبضة اللاسلكية التي يحملها مرافقنا يطلب منه إحضار الصحفي الأجنبي على وجه السرعة، فنظر إليّ مباشرة، وقد حاولت أن أتحدث مع المرسل عبر القبضة لأفهم ما الأمر؟؟فقال مجيبي:

- إن الأمير يريده ليسأله عن تحقيقه الأخير الذي نُشِر اليوم!!

طمأنته أننا سنأتي بعد قليل، وتسلقنا ارتفاع الأرض إلى القلعة عبر سورها المتهدم، وماهي إلا لحظات حتى أصبحنا بداخلها، كانت المرة الأولى التي أدخلها، دائماً خلال الحرب هناك أشياء تحدث للمرة الأولى أوبالأحرى كل تجربة هي المرة الأولى، حقيقة لم أتوقع أن تفتح السماء أبوابها من جديد عبر جبهة نارية بين أطراف لم نرهم حين دخلنا، كأن كلّ شيء كان مرتباً فور دخولنا أسوار القلعة..

رميت بنفسي فوراً على الأرض وكذلك فعل نيكولاس، فيما رجع مرافقنا حاملاً سلاحه للقتال بعد أن طلب مني الانتظار مكاني كي يعود ويأخذ الصحفي الأجنبي، وما إن غادر حتى زحفنا قليلاً وركضنا في صحن القلعة ودخلنا إلى صالتها الكبيرة، وهناك سألت نيكولاس عن مقاله الأخير، فأقر أنه روى بالتفاصيل التي تحدثت عنها حكاية أبي ضرار الذي تم اعدامه، ووصف حالة الانقسام في صفوف المعارضة المسلحة، ولما سألته عن الآلية التي وصف بها والسياق الذي رواها به قال:

- إنها محاكمة غير عادلة، إنهم مجرمون!!ولا بد أن تصل الصورة لكل العالم كي يعرف حقيقة ما يدور هنا..

حين أجابني هكذا جلست على الأرض بينما صوت الرصاص كان يتناهى إلينا، لقد وضعني أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن نهرب معاً من هنا وبذلك أحكم على نفسي بالموت فيما لووقعت بين أيديهم، أوأسلمه لهم كي يقتلوه ويصوّروه وهومكتوف الأيدي ليبثوا هذه الصور لكل العالم، وبذلك يكون ضررهم على الثورة أكبر من نفعهم، لحظات وأخذت قراري أن أهرب معه وليكن ما يكون، لكن كيف الخروج من أسوار قلعة حفِظت

كل من مرّ عليها، كيف لنا أن نهرب من التاريخ ها هنا ، فكل وسائل الهروب مكشوفة، ولا يمكن العبور إلى ضفة آمنة عبر الأسوار أوالباب الرئيسي، كل شيء يضيق، حين فاجأني نيكولاس بحديثه عن الممرات السرية في قلاع أوربا، ولابد أن تكون مخارج محتملة من هنا، فبدأنا رحلة البحث عن الممرات..

النار لا تزال مستمرة في الخارج لتحصد أرواحاً ستغدوأرقاماً في حصيلة اليوم عند الغياب، وعيناي بدأتا عملية استكشاف القلعة، جدار شبه دائري تتوزعفي جسده بعض الأبراج التي تتخّذ من شكلها دلالة على العصر الذي بُنيت فيه، وضمن هذا السور الكبير تقوم المدينة الكاملة بمبانيها ومساجدها وساحاتها ومخازنها ومسارحها وممراتها الواسعة التي بدأنا نخطوعلى حجارتها التي ما زالت تحتفظبوقع أقدام كل الراحلين عبرها منذ عصور، وصولاً إلى القاعة الملكية التي تعدّ صورة عظيمة للإبداع البشري بزخارفها المعقّدة ورخامها الأبيض المعتّق، حيث يقع في آخرها باب صغير يفضي إلى العديد من الغرف المتجاورة والحمامات المتتالية، وصولاً إلى المستودعات وغرف المراقبة الداخلية، فاسترقت النظر عبر نافذة من الشبابيك المستطيلة لأرى حلب القديمة وأسواقها المسقوفة وحاراتها وكنائسها ومساجدها وبيوتها الأثرية تحت النار.. لقد أدركت لحظتها أن حلب تحترق..

تاريخ كامل بكل ما فيه يحترق!!. حلب تحترق..

لم أستطع أن أراقب احتراق المدينة، فعدت ونيكولاس أمتاراً إلى الوراء حيث صرنا بقلب البهوالكبير للحمام القديم، وعلى كتفه الأيسر باب حديدي صغير أيقنت فوراً أنه الموصل إلى قنوات المياه ، فكسرت القفل

ودخلنا عبر درج صغير حيث الظلام والرطوبة تعبق بالمكان، فأخرج نيكولاس هاتفه المحمول وأضاء خطواتنا لنعبر أمتاراً أخرى، فنهبط أكثر إلى الأرض، ثم نستوي قليلاً لنمشي ما يقارب عشرين متراً بخطٍ موازٍ للممرات العليا، فأجد باباً آخر ندخله وقد انقطع بنا الصوت من كل شيء.. لقد صار كلّ شيء فوقنا حتى النيران المتقاطعة!!

صوت أمي يرن في أذنيّ:

- "إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معادٍقل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هوفي ضلالٍ مبينٍ".

الفصل الحادي عشر

مرةً أخرى في ساحة مطار حماه العسكري، حيث وقفنا أول مرة برفقة المعتقلين الآخرين، إنه اليوم الخامس لإقامتنا هنا، السماء تبدأ بالانفطار والأرض تتكوّر تحت أقدامنا، إنها القيامة حيث لا صوت يعلوولا تكلّم إلا بإذن، الفرق بينهما أن هناك رحمة ستتنزل من رب العالمين على جميع الواقفين، بينما ها هنا الرحمة قطعت لنفسها تذكرةً أبدية للخروج بعيداً.

من العادات السيئة التي أجبرونا عليها خلال وقوفنا اليومي مدة ساعتين تقريباً كانت التعري الكامل، فما إن ننتظم في الطابور الكبير عبر العديد من الصفوف حتى يأتي الأمر للجميع بالتعري، ولا مناص إلا من خلع كلّ شيء، كل شيء دون مواربة، في بداية الأمر شعرت أن هناك أمراً عظيماً سيحدث، لكن ما لبثت أن تعوّدت على هذه الحال، فرحت أفكّر كل مرّة بأمر بعيد كل البعد عمّا يدور في هذه الساحة، ثمة أشياء تستحق التفكير، أولئك الذين رحلوا وتركونا، وأولئك الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم بعيداً عن ساحات الموت، وأولئك الذين اكتفوا بالتنظير من خلف أجهزة الحاسوب عبر مواقع التواصل الاجتماعي، في هذا اليوم قررت أن أفكّر وأنا

أخلع آخر ثيابي في الصف الطويل بجلسةٍ جمعتني قبل قدومي إلى الحدود، في أحد المقاهي المطلة على الخليج العربي، بمجموعة من الشباب السوري الذي احترف الغربة، وخلال تلك الجلسة كان يدور النقاش حول القتال الدائر بين كل الكتائب على الأرض السورية وآلية إدارة المناطق المحررة، الآن فقط أستطيع القول إن كل ذلك كان فارغاً، والحقيقة وحدها هنا بين أيدي هؤلاء العراة الواقفين بلا حول ولا قوة أبداً!!

صوت الضابط الجديد يصرخ بالجميع طالباً منهم النزول إلى الأرض جلوساً كالبطة، لا مجال هنا لمخالفة الأمر، وماهي إلا لحظات حتى كانت القرفصاء ترسم فوق أجسادنا لوحة صامتة لم نلبث أن نحرّكها بخطوتين إلى الأمام، وخطوتين إلى اليمين ومثلهما إلى الشمال، كان الجميع يتمايل على أجساد الآخرين بينما تدلّت الأعضاء الذكرية بين أفخاذهم معلنة استسلامها المطلق وتخلّيها عن ذكورتها، الأعضاء الذكرية الخاوية كانت تشكّل نتوءات في هذا الموج العارم القادم بالموت بأي لحظة..

نوبات التعذيب هذه كانت بهدف إذلال المعتقلين وكسر أنوفهم ونفسياتهم، فهم مشاريع مقاتلين محتملين ضد العسكر، كما كان يصرخ الضابط الذي تمشى بضع خطوات بين المعتقلين، ثم أمرنا أن نرسم دائرة كبيرة ونقف خلف بعضنا البعض كقطار بدائي متلاصق، ثم نأخذ وضع الركوع بالصلاة، هازئاً بالصلاة ككل، لكن كي نفهم الوضعية التي يريدها اضطر إلى استخدام لفظ الركوع، جاء رأسي كما كل الرؤوس فوق مؤخرة الذي يتقدمنا وما هي إلا لحظات حتى صرخ الضابط بأن ننزل رؤوسنا لتكون الأنوف في قلب فتحة الشرج تماماً!!

لم أتخيّل أوأفكّر بهذه الوضعية أبداً في حياتي، إنه الشذوذ لا محالة، أستطيع القول الآن إن الإنسان خلق في فطرته قاتلاً يبحث عن فريسة، فهولا يضيّع فرصة أبداً بالعثور على ضحية، فهذا الإنسان الذي يتجاوز عمره ملايين السنين لم يستطع التوصل إلى الكتابة إلا منذ آلاف معدودة من السنين فقط، فهوهمجي في فطرته وربما يكون قاتلاً محترفاً في الأصل، أحاول أن أهز رأسي مستنكراً هذا الاتجاه من التفكير، فيتحرك أنفي في شرج الذي يتقدمني فأشعر به يشدّ مؤخرته وكأنه يطردني أنا القادم دون إرادتي!!

في العاصمة الأردنية منذ عامين تقريباًتحدثت مع زياد– وهوالذي خبر المعتقلات العربية–كثيراً عن أساليب التعذيب حول العالم في كل العصور، وقد أصر أن الحضارات كلها كانت تسير على ساقين، وتتعكّز على ساق ثالثة لتبقى الساقين الأوليتين بكامل حيويتهما، فكل الحضارات قامت على عمود الدين والفن، وكانت أساليب التعذيب هي الرديف الذي يضمن استمرار الشرائع الدينية والفنية، فقد تفنن الإنسان في كل مراحل تطوره في ابتكار الأبشع من وسائل الإهانة والتعذيب لمخالفه من بني جنسه، فاعتمد تارة على الحشرات كما فعل الفُرس حين قيّدوا الضحية عارياً على ظهره فوق لوح خشبي على مياه راكدة ببيئة مليئة بالحشرات، ثم قاموابإطعامه اللبن والعسل حتى تنتابه نوبات من الإسهال لجذب الحشرات التي تبدأ على الفورفي التغذيةعلى لحمه. أوكما فعل الرومان بتابوت المرأة الحديدية، حين وضعوا الضحية بشكل عمودي بقلب تابوت حديدي بشكل امرأة مبطّنةٍ بمسامير وأدوات مدبّبة، وما إن يغلقوا باب التابوت حتى تفارق الضحية الحياة، وهناك ساحقة الرؤوس والمنشار ومهد يهوذا الذي يشبه الكرسي

المخروطي ذا الرأس المدبب، حيث يجلس المتّهم فوقه، وحين يرفض الاعتراف يتم إنزاله بقوه فوق الرأس الهرمي، وهوشبيه جداً بالخازوق الذي استعمله العثمانيون في نهاية حكمهم لبلاد الشام..

حين كان يتحدث زياد عن هذه الحالات في أغلب الأحيان كان يستعمل ورقة وقلماً ليرسم المشهد، فالعقل البشري غير قادر على استيعاب ذلك، أوحتّى تصوّره، مع أن الإنسانفي فطرته قاتلٌ محترف، وقد كذب من ادّعى أن الإنسان يسعى للسلام، فهذه الحال التي نحن فيهاتثبت قطعياً نظرية لومبروزوفي الإجرام، وربما سأحتاج كثيراً من الوقت كي أستطيع الرسم بالقلم والورقة ما حدث لنا ولزياد، هذا إن خرجت من هنا سالماً وبقيت فيّ روح بعد أن أسحب أنفي من شرج الذي يتقدمني!!

من أين جاء هؤلاء؟؟من أيّ رحمٍ ولدوا؟؟أي نطاف قذفتهم وأي دماء تجري في عروقهم؟؟

بأسلحتهم يأمرون ويقيمون الشرائع التي يريدون، هنا السلطة للخوذة والبوط العسكرية والرشاش الروسي ولا شيء أكثر، في غمرة ما نحن فيه سقط البعض مغشيّاً عليه، فانهالوا عليه بالحبال النحاسية المفتولة بعضها حول بعض كجديلة عذراء تنتظر من يضفرها جيداً، كانت الدماء تسيل من كل جانب لتخفي آثار الجريمة حين وصلت مروحية من جولة قصف ليترجّل منها ضابط أشاح بيده لرفيقه الواقف بيننا قائلاً له:

- خليهم يتنايكو!!

كأنه أعطى صديقه فكرة جهنمية لتطبيقها علينا!!

لحظات وأمر من بقوا راكعين بالوقوف مشدودين، ثم طلب من عساكره أن يفرقونا بقوة، ويعيدوا ترتيبنا من جديد لنعتدل مرة أخرى بتشكيل مختلف بدائرة مقاربة لما كنا عليها منذ قليل ليبدأ بإخراج القيح من فمه القذر:

- انزلويالله بسرعة.. إنت خود شكل السجود.. اللي وراه اركبو.. اللي بعدواسجود.. اركبو.. اسجود.. اركبو.. اسجود.. اركبو..

رفض الأول في الدائرة فأطلق رصاصة في رأسه، فسجد الثاني دون نقاش، وهكذا اكتملت اللوحة التي أراد تخليدها، تمنّيت لحظة أن أكون الأول فيهم كي أتلق الرصاصة وأرتاح، لكنني لست بتلك القدرة الخارقة كي أتخذ قراراً بمغادرة الحياة..

- ياسيدي.. يا سيدي.. هذا مات!!

يصيح عسكري يبعد عشرة أمتار أوأكثر، وقد وقف بجانب رجل قد قارب الستين من العمر بينما جلس بين فخذيه شاب لم يتجاوز عقده الثاني، وبدأ يبكي حين ضربوا الرجل الكبير بالسياطكي يقوم لكنه لم يقم، لم يقم، لقد مات..

سأل الضابط الشاب:

- بتعرفو..؟؟

هز رأسه دون جواب، بينما امتلأت عيناه دموعاً حاقدةً..

- بتعرفو؟؟

- هذا أبي!!

انتهى المشهد كاملاً، وتم إسدال الستارة حين مات الرجل، وأمر الضابط الجميع بالعودة إلى الهنغارات، فبدأ العساكر جولة الضرب كي تكتمل النهاية بالموسيقا، بينما كنت أنظر إلى السماء متسائلاً:

- أين أنت يا الله عمّا يجري هنا؟؟!!

سمعت كثيراً، وربما شاهدت العديد من حالات التعذيب، لكنني أقسم بشرفي أنه لم يمر ببالي يوماً أن تكون اللواطة وسيلة تعذيب!!

في الهنغار سأسمع قصصاً مرعبةً لمعتقلين قُتل رفاقهم أوأخوتهم وشرّدت عائلاتهم، إنها قصص خاصة جداً تختصر هذه الحرب بكل اتجاهاتها، سأسمع قصصاً عن عمليات خطفٍ وفداء بملايين الليرات، سأتخيّل جوعاً تأتي لتستلم الطحين أوالخبز، ثمّ تأتي طائرة ببرود لتقتلهم جميعاً، سأحاول أن أرسم لوحة متكاملة لأولئك الذين نزحوا من بيوتهم بعد أن كانوا آمنين، لرصاص سينبعث من سيارة مسرعةٍ توقفت قليلاً قبل أن تتابع رحلتها بعد أن خطفت أرواحاً لمدنيين عابرين تصادف وجودهم لحظة عبورها المستحيل، سأسمع قصص حبٍّ لم تكتمل بسبب الموت أوالهجرة أوالاعتقال أوالتشوّه، في المعتقل كل الرؤوس تغدوسواء، وكل الأيدي يتشابك بعضها مع بعض لدفع الموت والعذاب، في المعتقل تحاول أن تخلق حديثاً عابراً قد يفضي إلى علاقة بين أي معتقل وآخر، ربما هوالبحث عن دفء العائلة!! في المعتقل تسأل زميلك عن أخواله وأعمامه وأصدقائه وزملاء إخوته علّك تصل في نهاية المطاف إلى خيط يأخذك لتذكّر راحلين أومغيبين، إنه المعتقل وفيه حياة يسكنها الجنون والموت في كل لحظة، في المعتقل تنسى لحظات التعذيب بمجرّد أن تدخل أسوار الهنغار وكأنه صار المكان الأكثر حريّة

بالنسبة لك، ففيه راحتك من كل شيء، من التعذيب والإهانة والسحل واللواط!!

بجانبي كان يجلس رجل بعد حفلة التعرّي فسألته عن مهنته في الحياة فأخبرني أنه محاسب وهوايته الشعر، فكانت مناسبة للحديث عن المتنبي وأبي تمام ونزار قباني ومحمود درويش وغيرهم، بينما وجدته ساكتاً فاحترمت صمته، ربما كان يفكّر في عجزه الشعري عن تصوير هذه الحالة، فمهما بلغ العقل المبدع محاولاً تصوير مشهد ينتظم فيه الرجال عراةً بعضهم جنب بعض متلاصقين مقرفصين لقضاء الحاجة البشرية سيفشل، حتماً سيفشل!!

في المعتقل دوماً هناك مساحة للحديث عن كل شيء وبأي شيء!!في المعتقل عليك ألا تبني صداقات حميمية مع أحد، فكل من هنا سيغادر بأي لحظة.

خلال أيام قليلة في المعتقل ستجد أن هناك شعرات بيضاء قد ظهرت لدى معتقل آخر لم تكن في رأسه يوماً، ستلاحظ أن هناك تجاعيد قد بدأت بالتشكل على جبهة أربعيني، واهتزاز بالأصابع، وارتعاش بالأطراف وقلق واستفراغ وصداع وموت!!

أسند رأسي إلى الحائط الحديدي في الهنغار بينما أصوات الأنين تأتي من كل صوب، صوت أمي في أذني من جديد:

- "إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معادٍقل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هوفي ضلالٍ مبينٍ".

أدخل ونيكولاس في زاوية معتمة جداً، وبطارية هاتفه الخلوي تكاد تفرغ، بينما رحنا نتلمس مواقع أقدامنا هكذا بالفطرة، إنه سرداب طويل

لربما استعمله قائد سكن القلعة يوماً، أوهاربٌ راح يبحث عن حريته بعد حكمٍ بالإعدام، رائحة الرطوبة الخانقة أشمّ بها رائحة التاريخ المعتّق بالدم والمؤامرات والانتصارات والانكسارات، خليط عجيب هذا التاريخ فما إن تقترب منه حتى تشمّ رائحته وقد لا تروقك لكنك مضطر للتعامل معها لقبولها كما هي، فإن نسفتها نسفت وجودك ووجود أجدادك الأولين، الذين ربما مرّ أحدهم في هذا السرداب خلال رحلة الانتصارات التي خلّفها الحكام دوماً، يمتد السرداب وفوقنا القلعة بكامل أناقتها تعلن صبرها وصمودها الدائم في وجه ما يحاك ويحكى، نمشي محنيين لتقارب وجوهنا ركبنا حتى اصطدم رأسي بحاجز حجري، فجلست وجلس خلفي نيكولاس، إنه مسدود، الله أكبر، أشعر بالاختناق، فالأوكسجين هنا لا يكفي بقاءنا ولا يمكننا العودة ابداً، أشعر بالاختناق اكثر..

أهز رأسي مرة أخرى فأشعر بأني لا أتنفس أبداً، وأن الجفاف تسلل إلى حلقي، فأنهض لفوري إلى ما بعد الحاجز الذي يفصل بين مكان قضاء الحاجة وبقية الهنغار لأصطدم بأكثر من معتقل لأفوز ببعض الماء شفطاً من صنبور قديم.. أبلل ريقي كصائم أفطر بعد طول انتظار، أتنفس، أملأ رئتي من هذا الهواء المجبول برائحة الدموالأنين.

أقف مكاني عائداً إلى ذلك المكان الكئيب تحت حلب التي كانت تحترق، بالكاد يستطيع نيكولاس تجاوزي كي يواجه نهاية الطريق بيديه التي راح يضرب بهما تلك الصخرة التي وقفت حائلاً بيننا، وما هي إلا لحظات حتى تحركت!!كانت باباً يفضي إلى طريق آخر تحت الأرض، نسير لا نعرف أي اتجاه، بينما رحت أردد بعض الآيات من القرآن الكريم..

دائماً يلجأ الإنسان إلى الدين في أحلك ظروفه، وفي شدّته ومحنته تغدوالعقيدة ملاذاً يعينه على تقبّل كل ما سيكون!!

دائماً كنت مقتنعاً بأن الخيارات الخاطئة غالباً ما تصيب الرجل مقتلاً، فكما قالت العرب يوماً من مأمنه يؤتى الحذر، فخوفي من تحويل مقتل نيكولاس بسبب تحقيق صحفي، أومحاكمته إلى قضية متكاملة تنعكس سلباً على آمال الحالمين بالخبز والحياة جعلتني أبحث عن مخرج لاستمرار البقاء، فوقعت في سرداب تاريخي تحت الأرض للحجارة فيه قصة لم تروبعد، بينما لبقايا الأقدام فيه حكاية نصر وهزيمة ربما لن أجدها يوماً في كتب التاريخ المدرسية، أتساءل الآن عن عدد الأشخاص في هذا العالم الذين يعرفون بأمر السرداب، وهل سمحت الدولة العليّة بالتنقيب تحت القلعة؟؟ وهل كان في مكان ما هنا غرف مليئةٌ بجرار الذهب والياقوت والمرجان وبقايا عظام لملك أوملكة أوأسير؟؟

في سوريا عمليات التنقيب عن الآثار تشبه تجارة المخدرات إلى حدٍّ بعيد، فهي تتم بالظلام تحت الأرض وبطرق غير شرعية، وما إن تنتج البسيطة قطعة من رحمها حتى تتقاذفها أيادي المتنفذين لتكون أدواتٍ مكملةً لديكور في غرفة الجلوس، أوهديّة مغلّفة لمن لا يستحقها، هكذا هوتاريخنا دون مجاملة أومواربة، وبطبعي أكره المواربة والظلام، ففي عام **2000** تم الكشف عن أكبر قطعة فسيفساء في العالم في المنطقة الوسطى بسوريا، ونظراً لعدم الرغبة في كشف تاريخ المدينة العظيم رفضت الجهات الرسمية إجراء عمليات التنقيب عنها، فضاعت معظمها نتيجة جهل الفلاحين، أوطمع الانتهازيين فيها حتى تقدّمت منظمة إيطالية متطوعة بكل التكاليف لتنفيذ

سراحل الكشف عن اللوحة التاريخية التي تختزل عصوراً من تاريخ من سكنوا على تلك الأرض، فما كان من الجهات المختصة إلا أن فرضت ضرائب وقامت بالتضييق على البعثة لمنعها من اكمال عملها، والتي بدورها قاومت، كشعار هذه البلاد، كل الضغوطات لتستمر في الكشف، وحين تمّ الأمر جاء المسؤول ذو النظارات الغالية والبدلة الأنيقة ليفتتح المشروع تحت رعاية رأس الدولة، ولن أتفاجأ أبداً بعد أكثر من عقد حين يخلع ذاك المسؤول نظارته وبدلته الأنيقة ليرتدي بدلة أخرى، ويجلس في عاصمة عربية مدّعياً معارضة الدولة التي كان يطبّل لرموزها دوماً!!

كيف لي أن أشطح كل هذا الحد وأنا معلّق بين باطن الأرض وظهرها، والموت يحاصرني بعد أن قطعت ما يقارب ثلاثة كيلومترات والزحف مستمرٌ للوصول إلى النور، البحث عن النور يدفعني لتذكر باولوداليليو، ذلك الراهب الإيطالي الذي أقام بدير مارموسى الحبشي في النبك جنوبي دمشق، وعشق العربية وسوريا كفتاة يطمح بالزواج منها، ويتمنى وصالها، ففي جلسة صفاء بعد الصلاة على ظهر الدير همس لي بعد أن شردت في الأفق البعيد راجياً الله الرأفة بنا:

- الله نور حياتي فممّن أخاف؟؟الله حصن حياتي فممن أهاب؟؟واحدةً سألت المولى واحدةً وإيّاها طلبتأن أعيش في بيت المولى، أن أعيش في بيت المولى لأرى نعيم الله!! قدّوس.. قدّوس.. قدّوس الذي لا يموت.. ارحمنا..

أردد هذه الكلمات بينما نيكولاس كان يصغي خلفي متذكّراً أيضاً تراتيل الكنيسة ربما..

ربما كانت هناك نقوش على السرداب الضيّق لم أرها أبداً، أوبالأحرى لم يعنيني وجودها من عدمه، فالحياة عندي الآن أكبر قيمةً من الآثار بما حوت، لا بد من استراحة قصيرة كي نتابع طريقنا تحت الأرض، فراح نيكولاس يتحدث عن أبنائه ويبكي بحرقة وكأنّه أيقن تماماً أننا لن نخرج سالمين أبداً، كالفراشة التي تقترب من النار دون أن تشعر كنّا نغوص في التراب تاركين خلفنا أثر أقدامنا لأجيالٍ قد تأتي يوماً لتحلل أن الإنسان القديم مشى بأحذية ذات يوم هنا!!

حقيقة دون زيف فكّرت لوبإمكاني أن أصدر بياناً عسكرياً أقتل فيه معنى العدل الذي يحمي الظالمين، أرمي آخر سهام الحرب كي يبقى من المدينة ما تبقى دون نار، أبني أملاً بعد الألم، وأميط اللثام عن كل غريب حاصر يوماً خبزاً أوحياةً أوولادة، أقتل وشاة الظالمين وأقلع عيونهم التي تسببت في موت الآلاف، أرفع أيدي الطيبين عالياً لنبعد الموت عن مدننا، ففيها ما يستحق الحياة، أنفي الأنبياء الكاذبين والقادة المزوّرين والجنود الخادعين وقطاع الطرق المتلبسين، وأسحب كل السلاح من المقاتلين، أعلن هدنة أبدية للسلم.. وفقط..

بينما كنت أحلم تراءى أمامي شعاع بعيد، فصرنا نحث الخطى ركاباً صوبالضوء حتى وصلنا، ترى كم من الذين ساروا بهذا الدرب قد وصلوا؟؟لا يهم فالثابت هنا أننا وصلنا إلى تحت عمود كبير يرتفع في الصخر إلى الأرض شاقولياً، بينما اصطفت على أطرافه بعض التعرجات التي تساعد في الصعود، فبدأت أنقل قدمي فيها من واحدة إلى أخرى حتى وصلت إلى السطح الذي كان مغلقاً بشبكٍ أسودِ عريض، كان هذا الشبك

هوالحد الفاصل بين الأرض وباطنها، بين الحياة والموت بالنسبة لنيكولاس وأنا، رحت أصيح لعلّ أحداً ها هنا قريباً يصغي، وما هي إلا نصف ساعة أوأكثر حتى أطلّ علينا رجلٌ بلحية سوداء كبيرة متفحّصاً الحال، فكلّمته باللهجة الدارجة ورجوته أن ينقذنا..

- مين انتو؟؟
- يا أخي احنا هربنا من المواجهة جنب القلعة وصرنا هون!!
- القلعة؟؟.. أي قلعة؟؟.. انتوعم تستهبلو؟؟
- لا والله يا أخي.. افتحلنا حتى نحكيلك القصة كاملة!!

غاب الرجل وعاد بعد لحظات ليضرب القفل الكبير بعدة رصاصات متتابعة فيرديه صريعاً، ولنخرج من قبرنا مستلقين على الأرض، ناظرين إلى السماء، نسحب أنفاسنا، ونشرب الماء بعد أن أحضر علبة كبيرة من سيارته البيضاء الصغيرة، لم يهدأ الرجل الذي ذبحه فضوله كي يعرف من نحن وأين كنا!!

عاجلته بسؤاله أين نحن، فأخبرني أننا بأطراف حلب، وأنه كان يقضي حاجة على طرف الطريق حين سمع الصوت..

- من أي الكتائب أنت؟؟
- أنا لست مقاتلاً.. باينتكم ومقاتلين كمان..
- لا.. نحنا مومقاتلين..
- مين الشب اللي معك؟؟.. باينتومن المهاجرين!!
- لأ.. لأ هادا صديق إلتقيته هون بالصدفة.
- وين التقيتوتحت الأرض.. بشرفك من وين جايين؟؟

- يا سيدي احنا جايين من القلعة.. اختلط الحابل بالنابل، فهربنا من باب صغير ومالقينا حالنا إلا هون!!

- شلون الطريق تحت؟؟

- كيف يعني؟؟

- في آثار.. تماثيل.. جرات.. صناديق..!!!!

- والله ما انتبهنا.. لأنو كان بدنا النجاة بس..

- وين الباب اللي دخلتومنو؟؟

- بالقلعة

- وين بالقلعة.. عند الجسر الغربي.. عند البرج الشمالي.. بالقاعة الملكية.. عند المسرح.. بالجامع؟؟ وين بالضبط؟؟

- بالحمّام.. ليش عم تسأل..

- لا ولا شي.. يا أخي هاللي عمروا القلعة قديشهم أذكيا.. حاسبين حساب لكل شي..

- اي سيدي بما انوانت مومقاتل.. شورأيك تشتغل معنا؟؟

- بشو.. تهريب آثار؟؟

- لا لا يازلمة احنا صحفيين، وبدنا حدا يوصلنا لريف حماه، وبما انومعك سيارة شورأيك تخدمنا وأكيد بتعرف الطريق؟؟

- اي طبعاً أنا اللي بعرف الطريق.. بساعدكم بس قديش بتدفعو؟؟

- كم بدك؟؟

- 2000..

أسأل نيكولاس فيؤكد موافقته على المبلغ.. فيتابع الرجل ذواللحية:

- 2000 أخضر موليرة..
- شو2000 دولار.. بس كتير يا شيخ..
- لا لا موكتير.. بعدين أنا أضمن لكم أن تمروا على كل الحواجز تبع النظام والمسلحين وما يصرلكم شي..
- طيب موافقين.. خلينا نتحرك..
- هلق.. فوراً..
- إي على الحارك.. عندك شي..
- لا أبداً.. يا سبحان الله.. لكم رزقكم وما توعدون.. اتفضلو..

أركب بجانبه ويقود السيارة، بينما يلقي نيكولاس بجسده على المقعد الخلفي، وبدأنا المسير..

لا شيء يأتي ببالي سوى حديث زوجتي مرةً عن أولئك الذين يبيعون الأرض بكل ما فيها للصهاينة المعتدين في (الضفة الغربية)، كيف لرجل أن يفرّط بأرضه دون أي وازع، وأن يتاجر بصباحاتها ومساءاتها دون أي رابط بذاكرته التي ولدت هنا وحبلت هنا وامتلأت هنا. في حديث عابر في مدينة عربية عن بعض الأصدقاء الذين سافروا إلى القدس لزيارة أهلهم بعد انقطاع بسبب البحث عن الرزق في مدن أشقائهم العرب، الذين طالما طالبوهم بالصمود والبقاء والتشبّث بالأرض، يومها صعقت حين علمت أن سامراً منعوه من مغادرة الجسر بحجة عدم حيازته على التصريح الخاص من شرطة الاحتلال، وأنه لابد أن يعود إلى القدس لهذا الإجراء، وحين رجع إلى بيته طالبوه بتسليم هويته والتنازل عن حق العودة في حال أخذ التصريح وخرج، ولأن لقمة العيش تتطلّب تضحية وبقاء، أخذ أصعب قراراته

ومضى بعد أيام يودّع أناساً لن يراهم مرةً أخرى، ويقبّل أحجار الأقصى لآخر مرة في الحياة، ويمشي دون أن ينام، محاولاً استغلال كل لحظة في الأرض المحتلة، أوكما تعرف في كتب السياسية العربية وأدبياتها أرض الـ 48.أحاول أن أقوم بمقارنة بين سامر وصديقي الكردي دلشاد، الذي ولدفي عامودا ولم يتم تسجيله في القيود الرسمية السورية، فظلّ مكتوماً، وحين كبر ظلّ مكتوماً بأسماء أخرى مزوّرة يقدّم من خلالها فحص الثانوية العامة عن آخرين طوال العام الدراسي في العاصمة، بعيداً عن منبته، وبجلدٍ غير جلده.الاحتلال في الحالة الأولى صادر أوراقه الثبوتية ورفض عودته، أما في الحالة الثانية فإن السلطة التي تتغنّى باسم الشعب وسيادته منعت دلشاد من جواز السفر ومن الطموح والحياة والبقاء..

نمشي بالسيارة البيضاء، وأهز رأسي رافضاً فكرة أن يمنعني أحد من العودة إلى وطني!!

- أهلين أب عبدو.. من وين الشباب؟؟
- الشباب صحفيين ورايح أوصلهم.. عندي الموضوع..

يفتح الطريق شاب مسلّح ربما لا يتجاوز عقده الثاني، وما إن نقطع الحاجز الطيّار الذي أقامه بعض الشباب حتى اطلق أبوعبدوالعنان لجهاز المسجّل لتغني إليسا.. قالولي العيد بعيوني..

أضحك قليلاً ثم أسأله:

- شوأبو عبدو.. وين اللحية والهيبة والدنيا!!
- يا شيخ هي الشعرات كرمال تفتحلنا الطريق.. كبّر عقلك!!

أن تكون صحفياً يعني أن تعيش الحرب بطريقتك الفذة على كل الجبهات، قضيتك نقل الخبر من أي مكان ليصل إلى كل مكان، لا شيء غير الحقيقة التي تراها بعينيك، هكذا قال لنا أستاذنا في التحرير الصحفي منذ عدة سنوات، وحين ناقشته في مفهوم الحقيقة بأنها نقطة متغيرة فينا حسب رؤيتنا للحدث ووقوعه أصرّ على أن الحقيقة ثابتة لا تقبل التغيير، وأنك عندما ترى أمراً تفترضه حقيقة ما هوإلا سرابٌ حتى يثبت العكس!!أتمنى لوألتقي أستاذنا القديم يوماً لأسأله عن الحقيقة التي يراها اليوم دون السراب، كانت الحقيقة الثابتة أمامي الآن أننا معتقلون في قلب الهنغار بمطار حماه العسكري، نتعرض لأفظع أنواع الإهانة عبر مرّ العصور، يمارسها علينا مسوخ قاموا من مسوخ، صوت صراخ وارتطام بالأرض يأتي من الجهة اليمنى للمعتقل، فأركض كعشرات نحوالرجل الذي سقط ليقترب الطبيب الشاب ويرفع ساقيه إلى الأعلى ويسند رأس الرجل إلى الأرض، بينما كان الضحية يرغي ويزبد ويرتعش، إنها نوبة صرع!!

مع ارتفاع الصوت اقترب الحراس من الغلاقة العليا للباب ونظروا، ثم أدخلوا كلاباً كبيرة الحجم إلينا، ومضوا بعد أن اختاروا مجموعة كنت بينها وساقونا إلى التحقيق..

ليست المرة الأولى التي أدخل فيها غرفة تحقيق، صرت أعرفهم أوأكاد أكتشف آلية أسئلتهم، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً، فثمة كاميرا تليفزيونية جاهزة لتصوير الاعترافات، وقبل أن يبدأ التحقيق سحبني الضابط من يدي قائلاً:

-      سأعقد معك صفقة، اقبل أن تعترف بأنك تآمرت على الدولة وحملت السلاح ضد الجيش، وسأضمن لك عدم التعذيب وسأريحك على الآخر!!

تفاجأت بهذا العرض، لكن هنا من الممكن توقّع كل شيء، رفضت مساومته الرخيصة، فأمر بإجلاسي على الكرسي الخشبي، وهوعبارة عن خشبتين متعارضتين كالصليب تماماً، تتوزع الألواح فيه بمفاصل معدنية يتم ثنيها مقدار مائة وثمانين درجة ليصبح الرأس عند القدمين بحركة تخلق تمزقاً مؤلماً موجعاً مدمّراً في البطن والفخذين والرقبة، لا أعرف لماذا ضرب في أذني صوت محمود درويش يصرخ بلساني حين رأيت الموت يقترب:

يا موت انتظر

ياموت

حتى أستعيد صفاء ذهني في الربيع

وصحّتي لتكون صيّاداً شريفاً لا يصيد الظّبي قرب النبع.

فلتكن العلاقة بيننا ودّيّةً وصريحةً:

لك أنت مالك من حياتي حين أملأها..

ولي منك التأمّل في الكواكب:

لم يمت أحدٌ تماماً،

تلك أرواحٌ تغيّر شكلها ومقامها

أصرخ ملء الكون، ولا أحد ينقذني من براثنهم حتى يأتي الصوت مرة أخرى، هل وافقت؟؟أصرخ مرة اخرى، هوخائف مني وأنا كذلك، لقد حوّلني إلى مقاتل دون أن يدري وما أصعب أن يتحوّل الصحفي إلى مقاتل، إلى صاروخ يدافع عن نفسه ضدّ الموت، ستبقى الجراح في جسدي سأتحسّسهاكأعضائي وأنقلها لأبنائي، كما نقل لي جدّي يوماً آلامه في السفربرلك ورحلة الحرب الإنكشارية في القوقاز، لن أسامح أوأصالح مهما كان الثمن، فالمقاتل لا يصالح إلا بدم!!

الآن فهمت حقيقة كيف يتحوّل الرجل إلى مقاتل، كيف تعسكرت الاحتجاجات بكل هذه القسوة، ضربة سريعة على رأسي تجعلني أهوي ويغمى عليّ..

روحي تدخل في صلاة غائبة، تتصل بالسماء مباشرة دون حجاب أوحجاز، إنه اختبار الصبر هناك، وتمجيد فكرة الانتظاربرفقة أبي عبدوالذي التزم صحبتنا بسيارته البيضاء، حيث مررنا على العديد من الحواجز للمقاتلين، ودخلنا قرى تتوزّع بتحفّزٍ على طرفي الطريق، عبرنا مقابر مفتوحة للنسيان والأشلاء وبقايا الرجال، رأيت تاريخاً يصنع على النار كما الخبز، يسلك أبوعبدوبخبرته طرقاً زراعية حتى نتجنب خطوط النار المفتوحة، وبرغم كل محاولاته فقد وقعنا بالقرب من قرية مورك في جبهة فتحت على عجلٍ حين أطلق القناص المتمركز على ارتفاع نار سلاحه الروسي على باص كبير للنقل العام، حيث قتل السائق فوراً بينما راح الباص يتحرك يميناً ويساراً حتى سقط بين خطّي الأوتستراد الكبير الذي يؤدي

أحد مساراته إلى دمشق، بينما الآخر يوصل إلى حلب التي تقبع تحت النار بلا ماء..

- الله أكبر..
- الله أكبر.. وقف أبوعبدووقّف!!

يميل الرجل إلى اليمين فأنزل مباشرة بينما يصيح السائق من خلفي أن إرجع يا رجل، الرصاص من بين الشجر يعبر فوق رأسي باتجاه القناص المتحصّن، بينما الأرواح والصرخات تنطلق إلى السماء من الباص الكبير الذي بدأت النار تأكل أطرافه، وفي المشهد هناك من يحاول القفز إلى الحياة من شباك الحافلة، إنها مواجهة الموت هكذا دون مواربة ودون القدرة على فعل أي شيء إلا البكاء أوالتفرّج!!

أحياناً يضطر الإنسان لمواجهة قدره باستسلام كامل، أوبالأحرى دائماً يخضع الإنسان لتلك الارادة التي تسيّره بإرادته فهومخيّرٌ ضمن دائرة التسيير، لذلك كان لزاماً على أولئك العائدين بالباص أن يستسلموا للموت، دافعين بكل ارتباطاتهم بالحياة إلا اللامكان، فكل شيء حولهم يحترق، والاقتراب من دائرة النار يعني الدخول في دائرة الرصاص، فالانضمام إلى قافلة الصعود إلى السماء.حتماً في الباص أمامنا هناك امرأة ينتظرها أبناؤها كي تعود بعد زيارة قصيرة لبيت جدّهم، وهناك طالب عائدٌ إلى أهله من الجامعة، ورجل يحلم بإتمام تجارته، وشابٌ يسرع الخطى للقاء حبيبةٍ في ظلام الليل!!، بينما على الضفتين كان هناك قاتلٌ محترف لا يعبأ بكل هذا، ايضاً الطريق لم يعبأ يعبأ بكل ما يحدث، وكذلك الشجر والحجر والعصافير التي أدارت ظهرها للجنون، حتى الغيوم لم تعد تهتم بما يجري تحتها، والأبجدية توقفت عن

التشكّل الحر لتعيد نفس الكلمات أمام مشهد كهذا.. إنه عبث الجنون باتجاه الموت الذي يتحوّل إلى خبرٍ لا يراه القاتلون على شاشة التلفاز في نشرة الأخبار ليلاً وكذلك المقتولين!!

في الحرب تتغيّر الاتجاهات، فالشمال هوالجنوب، والغرب هوالشرق، والمساء هوالصباح، والصباح لم يعد يأتي بعد أن فضوا بكارته على عجل، وقتلوا كل أحلامه البريئة، فهاجر إلى الصحراء هناك حيث لا قتل ولا جبهات ولا طريقٌ معبدةٌ إلى السماء، فقد أيقن أن لا أملهنا في الحرب!!

لا مجال للتوقف لانتهاء الرصاص ودفن الموتى، يسحبني أبوعبدوإلى السيارة، وينحرف يميناً بعكس اتجاه القناصة الذي كان يتابعنا بالنار، ونحن هاربين باتجاه القرية الصغيرة المجاورة، بينما اختبأ نيكولاس تحت الكرسي الخلفي، وماهي إلا ربع ساعة حتى كنا نسير وسط الشارع الرئيس في القرية، وكل الألسن تتناقل أخبار ما يحدث على حدود قريتهم باتجاه الطريق الدولي دون التوقف عند أولئك الذين ماتوا، وظلّت صورهم، وهم يحاولون الهرب من النار، عالقةً في ذهني..

- ما عاد فينا نكمّل يا أستاذ؟؟ لازم نرتاح هون حتى تهدأ الأوضاع على الطرقات!!

- وين بدنا نروح؟؟

- رح نسأل عن الشباب هون ومراكزهم ولا تقلق رح أحلها..

- توكل على الله.. ورحت أشرح لنيكولاس أنها ستكون فرصة جيّدة أيضاً للاطلاع على ما يحدث هنا..

نصف ساعة أوأكثر وندخل بناءً غير مكتمل يحيط به بعض الشبّان، يتقدّمنا أبوعبدو، بينما كنا نتبعه ومعنا مسلّحين باتجاه قائدهم الذي لم يتجاوز عقده الثالث بعد، والذي ما إن رآنا حتى هبّ مستقبلاً، وجلسنا نتحدث عن رحلتنا وهدفنا الذي ننشده بالوصول إلى اللطامنة، فطلب منا الراحة يوماً أويومين، بينما استأذن أبوعبدوللذهاب بحثا عن بترول لإكمال المسيرة، فمضى على أمل الرجوع، ومضى النهار حتى المغيبولم يعد، وحين سألت عنه القائد قال إنه رجع إلى حلب، وسنتكفّل نحن بالطريق فلا تقلقوا.. بالطبع كان أبوعبدوقد قبض الـ **2000** دولار قبل أن نخرج من حلب!!

هذه المرّة لن أدوخ بالتفاصيل، فهناك حرب طاحنة على امتداد النظر، بينما هدأت النيران على سفوح هذه القرية وعادت المياه للجريان في شرايين شوارعها حين صاحت الأصوات على حين غرة أن القادم من بعيد لا يشي بالخير، ثمة موت جديد يحاصرها ويحاصر من فيها بعد ست ساعات أوأقل من نوم عواصف النيران وتصالحها مع طبيعة الأرض، ثمة موت قادمٌ لحصد المزيد، عشرون دبابة أوتزيد وزوايا مرتفعة تطلّ على القرية بسبطانات الهاون الممدودة إلى السماء، بينما راح الوقت يمضي على عجل، تتسارع العقارب في كل اتجاه، فلم يعد مهماً أن تسير باتجاه واحد، فكل الطرق تؤدي إلى النهاية المحتومة بين النزوح أوالموت، حالة من الفوضى تنتاب شوارع القرية من جديد، بينما قرر الحشد العسكري فيها أن يقاتل حتى النقطة الأخيرة من الدم، ولم يعلموا أنه لم يعد هناك من الدم ما يكفي جشع التراب ويقنع جوع السماء، إنها الحرب حيث

تتغيّر المسافة بين الأمان والعبث، بين الجنون والوعي، بين السلاح والصراخ كما التباعد بين ضفتي القتال المحتمل، إنها الحرب حيث تغدوالقرارات ناراً تأكل الأخضر وتحرق اليابس وتقتل البشر وتلغي من الحجر تاريخه وإرثه العظيم، إنها الحرب وما عليك إلا أن تتقبّل كل النتائج وإلا فأنت ستكون زائراً لأحد القبور المفتوحة بانتظار الموت تحت أراجيح أطفال مروا من هنا، من أرض الحديقة التي تحولت ككل زوايا الوطن الكبير إلى مقبرة، فكيف تسير في بلاد كلها مقبرة؟؟. وكيف تجلس دون قتال في بلاد يأتيها الموت بدل الصباحات التي غادرت إلى الصحراء!!

يتوزّع الرجال بمحيط القرية، وقد لاحت من بعيد عربات مجنزرة تحمل الموت كذخيرة حيّة، تحمل أحلاماً وأشباه انسان كان طموحاً قبل الحرب، فحوّلته جولاتها إلى آلة تقتل أوتسرق أوتنهب أوتغتصب، إنها الحرب ولا عجب، مئتان من الرجال حملوا أسلحتهم الخفيفة وخرجوا بحثاً عن نهاية تليق بهم، بينما ركضت، ونيكولاس إلى بيوت القرية التي بدأ أهلها بالخروج منها، فلجأنا إلى مستودع كبير على الجهة الشرقية من القرية يبدوأنه كان برّاداً للأغذية وحفظ الخضار والفاكهة، وقد توقّف عن العمل منذ زمن بعيد لأن الكهرباء لم تعد تأتي إلا نادراً، دخلت ونيكولاس، وما هي إلا ساعة أوأقل حتى بدأت النيران تأكل الأرض، إنها الحرب وفيها عليك تقبّل كل النتائج طالما أنك اخترت التواجد فيها..

كانت عادة الجيش أن يدخل إلى القرية أوالمدينة فيظهر قوته وسيطرته وبسالة رجاله، ثم يعتقل ما يستطيع من الرجال وينسحب إلى أحد النقاط

الهامّة في البلدة التي يدخلها.صدقاً لم أتوقّع أبداً أن يكون البرّاد هوهذه النقطة التي سيختارها الضابط لتكون مقراً لهمجيته، ومعتقلاً لمن تبقى من الرجال المسلحين، كاميرا التلفزيون أيضاً كانت حاضرة لاستثمار الانتصار العظيم، أصوات الرصاص والهاون تنعكس إلى السماء دخاناً يحجب رؤية الغيوم التي أطبقت عينيها عن كل ما يحدث، لا رائحة للمكان ولا رائحة للقرية والأرض إلا رائحة الموت التي صرت أتحسسها عن بعد، أرتفع على كتفي نيكولاس لأنظر إلى المدى من شبّاك صغير فوق الباب لأفاجأ بأرتال العساكر يمشون متجاورين وأمامهم يسوقون رجال القرية وبعض المسلّحين، عدت إلى الوراء، وبدأت أصرخ على نيكولاس بالعربية أن يتحرك معي باتجاه الأخشاب هناك، فانتبهت أنه يفتح يديه دون أن يفهم فصرخت له بالانكليزية وتقدّم سريعاً هارباً إلى الحياة..

كلهم يجلسون بينما راح النقيب يمشي بينهم، فيضرب هذا على رأسه، ويطيح بذاك بضربة بقدمه، بينما انشغل العساكر بتصويرهم وتأكيد اليوم والتاريخ عبر مقاطع الفيديوبهواتفهم المتحركة، الغريب الذي رأيته هووجود بعض نساء القرية أيضاً على زاوية المكان مقيّدات، فحرصت ألا آتي بصوت، ولا أنبس ببنت شفة حتى نتبيّن ما سيحدث فلعلهم يمضون ويتركون المكان كما كان بحمولة زائدة من الذكرى الأليمة والوجع، لكن هيهات هيهات فقد أتوا وهم غير راحلين، يسأل الضابط:

- مين مرتوا هون؟؟ ويشير للمعتقلات..
- أنا يا سيدي أنا..
- وين مرتك يا عرص؟؟

- هي يا سيدي هي.. ويشير إلى واحدة من النساء.

تقترب المرأة من الضابط فيزيل حجابها من على رأسها، ويبدأ بشدّ وجهها بحركة دائماً نفعلها للأطفال الصغار، يصرخ الرجل:

- يا سيدي.. لا.. يا سيدي.. لا مشان الله.. لا.. كنت مفكّر رح تخلينا نروح أنا وهيي.. يا سيدي.. الله يخليلك ولادك..

- اخراس ولاك.. اخراس..

- يا سيدي بترضى حدا يعمل هيك بمرتك أوأختك..

- يلعن دينك يا كلب.. عم تشبه مرتي بهالزبالة...

ثم ضربه بأخمص البندقية على كتفه..والتفت إلى العساكر وسأل:

- مين معو قدّاحة..

- تفضّل سيدي..

يمسك جديلة المرأة ويشعل بها النار، فيبدأ الشعر يصدر صوتاً شبيهاً بالأزيز ورائحة تطرد كل ما كان جميلاً في الهواء قبل قدومهم.. وهي ساكتة لا تتحرك، بينما راح زوجها يتقلّب معلناً ثورته من جديد!!

لم يتمالك نيكولاس نفسه فبدأ يبكي من داخل ألواح الخشب، فانتبه عسكري للصوت واقترب باحثاً عن مصدره فوجدنا..

- يا سيدي.. يا سيدي.. هدا أجنبي.. لقيت أجنبي هون..

- هاتو.. هاتو.. هدا أكيد مجاهد.. من جماعة العرعور... هاتوهالعرص..

وترك المرأة التي بدا التشوه على شعرها الذي انشدّ تماماً..

أخرج ونيكولاس تحت تهديد السلاح لنركع تحت قدمي الضابط الذي يتحدث لنيكولاس بعد أن يمسكه من شعره:

- جاي للجهاد ولا كر.. بدك تجاهد؟؟

- **No no no am cristian**

حقيقة لم أتوقع أن يفهم نيكولاس كلمة الجهاد، لكن يبدوأن بعض الكلمات لها وقع خاص في قاموس الأجانب كجهاد ومجاهد وانتفاضة وسنّة وشيعة..

- هاتو..

يأمر عساكره الذين أخذوني فربطوني إلى الرجال الآخرين ووضع نيكولاس أمامنا وحده وبدأ بسؤاله بلهجة أعرفها تماماً..وحين عجز عن التفاهم معه صرخ لي كي أحضر فأترجم له، فرحت أشرح لنيكولاس ما أريد أنا وأنقل له ما أريد كي نخلّص أنفسنا من يديه، منكراً معرفتي به حتى قلت للضابط أني كنت مارّاً بالطريق السريع، فبدأت المواجهات بين الطرفين فالتجأت إلى هنا حتى تهدأ الأمور وأعود لبيتي!!

نيكولاس صامت، وقد طلب مني أن أقول لهم إنه صحفي لعلهم يترَكوه، فكان صيداً ثميناً ربما انتظره الضابط طويلاً..

نصف ساعة أوأقل وتم ترحيل الذين وجدوا معهم سلاحاً، بينما ظل المدنيون والنساء حيث تم الإفراج عنهم بعد ابتزاز ذويهم الذين سارعوا إلى دفع مبالغ طائلة كي يخرجوهم من هنا، من هذا القبر المفتوح على كل طرق الموت!!

إن كنت تملك المال في سوريا فأنت قادر على فعل كل شيء حتى الخروج من السجن، ربما لا بدّ أن أذكر هنا أنه خلال أحد جلساتنا في مقاهي الخليج تحدّث أحدهم عن طريق يمرّ عبر محامٍ متزوّج من قاضية للإفراج عن أي معتقل مهما كانت تهمته بعد دفع الأموال التي يطلبها المحامي كي تأتي زوجته بملف المعتقل وتحاكمه صورياً، ثم تشرع عملية الإفراج التي لا تأخذ أكثر من أسبوع كي يصير المعتقل طليقاً!!

ثلاثة أيام كاملة والموت يهاجمنا، بينما راح يتفنن الضابط بوسائل التعذيب لمن بقي من المعتقلين، أما نيكولاس فمن شدّة ما تعرض للضرب لم يعد يقوى على الوقوف، فشدّوا وثاقه إلى الصف الثاني من الألواح المشدودة بين حائطين، والتي ترتفع ما يقارب مترين ونصف عن سطح الأرض، بينما أتوا ببرميل كان ملقى على جانب أجهزة التشغيل ووضعوه قريباً منه.

في ليل اليوم الثالث كنّا نسترق السمع إلى بعض العساكر الذين راحوا يتحدثون عن زملاء لهم في قطعة ثانية سيمرّوابهم لتزويدهم بالغذاء والماء والعتاد، بينما رحنا نتخيل نحن- المعتقلين-أولئك الجنود الذين سيهجمون علينا ما إن يرونا على اعتبارٍ أننا أعداء الوطن!!

يسأل الضابط عن البرميل الواقف جنباً ليخبروه أنهم وجدوه ملقياً فيقترب منه ليكتشف أن بداخله مادة تشبه الأسيد (ماء النار كما يعرفه السوريون) لتلمع في ذهنه فكرة جهنمية لا تخطر على بال إنسان..

ربما يقترب الرجل من الجنون في لحظة، ثم يبتعد عنه كما الفراشة التي تقترب من النار لجمال شعاعها ودفئها، فتلتهمها ألسنة اللهب دون أن تعطيها الفرصة للنجاة، وقتها كان الضابط قد دخل في المحظور حين سحب

البرميل وأنزل فيه قدمي نيكولاس الذي صرخ بأعلى صوته وصرخت أنا قائلاً:

- هذا صحفي يا سيدي.. صحفي يا الله...

نظر إليّ نظرة حادة فهمت أنّ بعدها ستكون رصاصة الموت لا محالة..حين دخل بعض الجنود القادمين بعد أن وضعوا عرباتهم خارجاً..

إنها القيامة، صراخٌ من كل اتجاه حين انشغل عني الضابط بضرب المعتقلين مع الجنود القادمين، بينما كنت أتلقى الركلات وعيناي مسلّطتان على نيكولاس الذي فقد الإحساس بقدميه الغارقتين بالأسيد، بينما غطّت المكان رائحة سلخ الجلد، لحظة سلبتني الحياة كل ما أملك حين سمعت اسمي من أحد العساكر البعيدين، وما إن رفعت عيني حتى تلقيت صفعة من جندي يجاورني فعاد الصوت من جديد:

- هذا ابن عمي اتركو.. ارفع ايدك..

جمد الدم في عروقي، فهذا الصوت الأجش لا أعرفه أبداً، رفعت عيني مرة أخرى، وقد حاولت أن أبعد الغشاوة عنهما ما استطعت، فإذا به يقف أمامي مادّاً يده لي، إنه هو، ذلك الطفل الصغير الذي كنّا نداعبه ونشجّعه حين كنّا نراقبه وهويلعب كرة القدم!!

لقد صار أكثر طولاً وأكثر نحولاً، بينما صوته أصبح ذا بأس، أجشّاً خشناً كهذه الأيام، إنها الحرب حيث يتغيّر الإنسان، فيكبر وينحل ويشيب!!

- ماذا تفعل هنا؟؟

يسألني.. ثم يتدارك نفسه ويكمل:

- لابدّ أنك جئت إلى بيت حميك وأخوال أولادك هنا..

وقد أشار لي بطرف عينه..

- نعم.. نعم.. لقد جئت هنا بعد أن أرسلت زوجتي منذ أسبوع، وقد وصلت منذ ثلاثة أيام فلم أجدهم، وبدأ الاشتباك فاختبأت هنا واعتقلني زملاؤك..

يتوجه للضابط:

- يا سيدي هذا ابن عمي وما لوعلاقة بأي شي أبداً / زلة بحالوعايش، كان يزور بيت احماه!!!

لا أعرف من أين أتتني الجرأة كي أوافقه وأكملالقصة التي اخترعها، ربما هي رغبتي بالحياة والنجاة من مستنقعهم، لحظات ويأمر الضابط إكراماً للعسكري– ابن عمي– بإطلاق سراحي، أبتعد قليلاً عن المعتقلين لأصبح بين العساكر، فيعطوني سجائراً وماءً بينما بقي المعتقلون كما هم ونيكولاس الذي طلبت من ابن عمي بهمس أن يتدخل أيضاً لاطلاق سراحه فردّ عليّ:

- لوتحدثت بأمر هذا الأجنبي لعلّقوني مكانه!!اتركه له الله..

سألت نفسي لحظتها وقد عاد الضابط ليغرس ساقي نيكولاس في الأسيد:

- أيّ الله يعرفون.. أهوالله خاصتنا أم إله غيره؟؟

سأجلس يومين أيضاً بانتظار ابن عمي– العسكري- الذي وعدني بأنه سيعود ليصحبني باتجاه المدينة، فمعهم الطريق آمن، وإنها لمجازفة إن بقيت هنا أوخرجت، كنت أفكّر طيلة الثماني وأربعين ساعة بتلك المعاملة التي تغيّرت بنسبتي منذ أن أخبرهم أني ابن عمه، بينما فارق نيكولاس الحياة عقب نوبات التغطيس بالأسيد، وبالطبع لم يقوموا بدفنه بل تركوه بقربنا

لتفسّخ جثته، هنا مقابل المعتقلين كنت أصافح العسكر وادخّن معهم وأتابع معهم- بشغف أيضاً- بطولات أحدهم عبر مقطع للفيديوفي قرية أخرى يظهر فيه العسكري ممسكاً بسكين يقطع فيه أجزاءً من جلد المعتقل، ثم يصرخ آخرون:

- ابن الشرموطة.. ما مات؟؟
- لا لا.. ضل عايش.. طبعاً مات.. شوكنت عم اضربوبشلمونة!!

ألعن نفسي، ألعن روحي، فكل الحياة صارت نصفاً بنسبتي، نصف بقاء ونصف موت ونصف روح، شيءٌ واحدٌ كاملٌ عندي.. اللعنة.. ولا شيء غير اللعنة، فأي لعنة ورثوها وتناقلوها فيما بينهم؟؟

أحاول أن أنام قليلاً قبل الصباح الذي لا يأتي منذ أن سكن الموت هذه البلاد، لك أيها الحلم أن تراودني عن نفسي ولي أن أهرب منك كمحكوم بالإعدام، طيف نيكولاس وضحكاته ودموعه على ولديه لا تفارق أذنيّ، نيكولاس الذي لم يمت في الليرمون أوتحت النار وتحت الأرض في سراديب القلعة، مات هنا في برميل الأسيد!!، أي جنون هذا وأي قبح، لقد مات نيكولاس وهوبريء الذمة تجاه أبي عبدوالذي قدّمنا سويّاً إلى الموت ثم غادر!!

أشعر بأني سقطت من طائرة على علوٍّ، أصوات كثيرة واطلاق رصاص وصرخات متفرقة، أتململ قليلاً، ما أبشع هذا الحلم، الأصوات تقترب وأنا أركض بعيداً، الأصوات في أذني توقظني، ما أبشع هذا الحلم، ركلة على خاصرتي أدفعها بكل ما امتلكت من قوة، ما ابشع هذا الحلم، أكاد أختنق، رائحة الدم تحاصرني، هناك من داس عليّ ومضى، ما أبشع هذا الحلم، الجميع

منبطح، إنه ليس حلماً، لقد كانت حقيقة تخيّلتها حلماً، الاشتباكات عنيفة على باب المستودع الكبير، الرصاص يخترق الحائط والباب الكبير الذي تهدّم نصفه، يستسلم بعضهم ثم يدخل آخرون..والضابط مثلي كان يحلم إلى أن استفاق بين أيديهم، لقد كانوا من تبقى من المقاتلين، اضافة إلى فرقة دعم جاءت من الشمال لمؤازرتهم في استرجاع القرية..

في الحرب على هذه الأرض تستنتج فوراً أن جولاتها كلها هي انتصارات وانكسارات، فمن يسيطر على حاجز أوقرية يعتبر نفسه انتصر في المعركة، ولا يهمّه ما سيأتي من بعد، في الحرب على هذه الأرض كلّ شيء ممكن حتى انقلاب الأعداء إلى أصدقاء وتخلّي الأخ عن أخيه ، وانقاذ عسكريٍّ لمعتقل بقرابة الدم، في هذه الحرب يعود الضابط الذي كان قبل نومه ملكاً يأمر وينهي إلى معتقل مكان من كان يعذّبهم، ومن كان معتقلاً يمسك بمفاتيح السجن فتنقلب المرايا وتتغيّر الألبسة فقط..

صراخ بعض الجنود يدوّي في المكان:

- أنا بدي انشق..
- أنا بدي انشق..
- أنا أعلن انشقاقي..

بينما الوجوم يسيطر على الضابط الذي وقف مسلوب الارادة، بينما ركضت أنا باتجاه جثة نيكولاس محاولاً استرجاعه، ثم اقتربت من الضابط الذي أحاط به بعض المسلّحين وبصقت عليه، ثم رفعت يدي لأضربه فمنعوني..

كان المعتقلون الفقراء يحاولون استعادة الحياة بعد أن فقدوها، ثم انقضوا هجوماً على العساكر يريدون الانتقام، في الحرب الانتقام هوالسيّد دوماً، بينما صاح الضابط:

- أنا مستعد ادفع 25 مليون ليرة بس اتركوني روح!!

تبعه جندي:

- وأنا بدفع 15 مليون بس اتركوني روح..

كل هذه الضربات تتوالى على الرأس، فمن أين للضابط والجندي كلّ هذه النقود، لابدّ أنها كانت جولات الغنائم التي كسبوها خلال معاركهم لأمن الوطن وحماية المواطن، ساعة أونصف ساعة تقريباً وتأتي مجموعة أخرى من الرجال، كانوا يمشّطون المكان ومعهم بعض الأسرى من الطرف الآخر للطريق الدولي، وانتظرنا ساعة أخرى فجاءت مجموعة ثالثة كانت بمهمة على الجهة الغربية من القرية، ومعهم أسرى آخرين تتبعهم كل الأمهات بالقرية، يدخلون ثم تبدأ النساء بالهجوم بالأحذية على العساكر ولا أحد يمنعهم، لقد اغتصب العساكر بعض الفتيات بالقرية الصغيرة أمام أعين الأمهات الثكالى، إنها الحرب حيث تتفتّق الرغبة البشرية بأنجس صورها وأقبحها، لن ينسى التاريخ أبداً، لن تنسى جولات الثورة والحرب هذه الأمهات ودموعهن في الخفاء، من فضّ غشاء بكارة بناتهنّ، يصيح عسكريٌ مستنجداً:

- كل الحقّ على الضابط.. هومن كان يعطينا حبوب التهييج (الفياغرا).. كان يضعها لنا في الشاي وفي الطعام، أويعطينا اياها قبل المهمة كي نهجم على كل فتاة نراها!!

أي قبحٍ هذا وأي فجور!!

أطلب أن أضع الضابط في الأسيد انتقاماً لنيكولاس، وأبدأ أروي القصة كاملة أمام الجميع، وحين وصلت إلى أسوار حلب في قصتي، دخل نزار من الخارج حاملاً سلاحه، وما إن رآني حتى ضرب الأرض بقدميه وصاح:

- أنت هنا... الله أكبر..

وبدأ يبكي وبدأت أبكي، ليقصّ عليّ كيف هبوا في الشمال بعد أن وصلت فلول النازحين، وقد رووا ما حدث هنا لنصرة من تبقى من أهل القرية، فكانت لديّ القصة الأخرى عن والده التي لا يعرفها، أخبرته عن بيتهم وطاولة الزهر والمكتبة وابن أخته الجميل، فضحك حين عرف كل تلك التفاصيل:

- الدنيا صغيرة يا أخي.. يا سبحان الله، من تركيا لضيعة أبي حسام لحلب لبيت أهلي إلى هنا...

- ماهي أخبار أبي حسام؟؟

- استشهد..

- يا الله.. يا رب السماء..

كان من الطبيعي أن تتلقى خبر الموت هنا في أي لحظة، حاولت أن أتحدّث عن نيكولاس وأبي عبدووسراديب القلعة حين فتح نزار عينيه على مصراعيها، ووقف صارخاً ناظراً إلى الأسرى القادمين من الجانب الآخر للطريق الدولي..

- الله أكبر.. الله أكبر.. "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب"، كم دعوت الله أن يلاقيني بلك، وهاهوربي لا يخلف موعده ابداً.. ينظر

باتجاه رجل ظهرت الحيرة على محيّاه دون أن يتكلّم، ودون أن يبدي أنه المقصود أبداً، حتى يقترب منه نزار ويحمل سلاحه في وجهه طالباً منه النهوض أمام الجميع، ليقترب الرجل ويجلس في منتصف المستودع والضابط وعساكره يرقبون كلّ شيء..

- أيها الأخوة:

منذ سنوات مضت ذهبت إلى العراق، وحاربت مع المجاهدين العرب الذين تطوّعوا للدفاع عن أرض الرافدين، لكن خسرنا المعركة، وعبرت نهر دجلة ولجأت إلى بيت هذا العراقي، فقام بتسليمي إلى القوات الأمريكية في اليوم التالي لمبيتي عنده!!!!

الذهول يسيطر على المكان.. يطلب نزار من الرجل التحدث والاعتراف، بعض الرجال صار يبكي، بمن فيهم أنا ونزار، يبدأ الرجل بالإنكار، نزار يواجهه، لا يمكن أنت هو، هل تقاتل اليوم مع النظام كميليشيات، لم يعطه فرصة الرد فكان صوت الرصاص أسرع من كل الكلام والحروف.. لقد قتله وانتقم لعام وأكثر في السجن بيد قوات التحالف ، قتله بعد أكثر من عشر سنوات قضاها بين جنبات حريته التي يسعى اليوم لإكمالها..

إنها العدالة تتجلّى، عدالة الكون وناموسه العظيم، الحقّ لا يفنى مهما طال انتظاره، هل يكفي أن تقول منظمة هيومن رايتس ووتش في تقاريرها "إن الجيش والقوات المؤيدة للحكومة المعروفة بالشبيحة احتجزت ناشطات المعارضة تعسفياً، وكذلك قريبات وجارات للنشطاء والمقاتلين المؤيدين للمعارضة، وفي عدد من الحالات عرضتهن للتعذيب والانتهاك الجنسي"،

إنه قانون السماء الذي يطيح بكل ما في الأرض من ظلم وجور، يسقط العراقي على الأرض قتيلاً لجرم ارتكبه منذ سنوات طويلة، هولم يمت بسبب القتل الذي مارسه على الأرض السورية، بل إن رغبة القتل ساقته إلى هنا لإكمال دوره في المسرحية التي بدأها أمثاله منذ أعوام خلت.. إنها الحرب وهذه أحدى جولاتها التي سقط فيها أخيراً الضابط في برميل الأسيد، بينما قتلوا الجنود جميعاً ومضيت أنا مودّعاً نيكولاس بدون طقوس لأدفنه هنا، تاركاً صليباً فوق قبره بينما احتضنت نزار الذي كتب لي القدر أن أراه مرة ثانية وأخيرة...

يحدث أحياناً للحياة أن تقذفنا بسهامها دفعة واحدة، فلا تعطينا مجالاً كي نفيق من الغفلة ونعود إلى واقعنا إلا بخطوات مثقلة بالألم والبؤس والدمار وربما الانتقام، هناك على مطلع الشمس ومغربها في هذا الوطن، هناك ضفتان تحملان السلاح لأجل الوطن، تدافعان عن بقائه ووجوده، بينما أهل الوطن صاروا بالمنافي والشتات بعد أن صادر الوطن منهم أعزّ ما جنوه في أعمارهم من بيوت ومكتبات وتحف، إنها الحياة حين يركبها انتهازيون وقتلة وقطاع طرق، لا شيء يدفعني للبقاء هنا سوى وفائي لنيكولاس الذي مات بالأسيد الحارق لا لجرم ارتكبه، بل لأنه قرر أن يكون هنا، في أرض الرسالات والحضارات والنور، وليموت على أيدي أحفاد من أرسلوا بولس الرسول إلى ما وراء المتوسط يوماً!!عندما بكيت في وداع نزار الأخير محمّلاً إياه بضع التحيات الطيبات المباركات لوالده قال لي:

- لا تبك يا أخي فالضعيف من له حق ولا يصر على حقه، ونحن لنا عندهم ألف ألف حق.. وقد صار لك حقٌّ تطالب به فلا تيأس..

في طريقي إلى اللطامنة وحيداً، في سيارة يستقلها مقاتلون يحملون مقبضاً لاسلكياً لتأمين الطريق، حاولت أن أستحضر روح نيكولاس معي، أحدثها وأضحك معها وأشرح لها عن الطريق وعن خطوات الفيلم والتحقيق الذي كنّا نفكّر به عن مجزرة اللطامنة، أستحضرها مرة وأفشل مرات أخرى، فقررت الابتعاد عن الإنسانيات، ففي الحرب قد تغيب العلاقات البشرية وتصبح ترفاً، فرحت أفكّر ماذا لوارتدت النسوة في هذا الوطن كله حزاماً للعفة مثل الذي ارتدته نساء أوربا في القرون الوسطى لمنع الاغتصاب، ماذا لوربطت المرأة حول خصرها حزاماً حديدياً له قفل وفتحتان صغيرتان تكفيان لقضاء الحاجة فقط، بينما يبق المفتاح رهيناً مع الرجل، ليقاتل مطمئناً على شرفه وعرضه ألا يدنّس، ماذا لو؟؟ هل كنا سمعنا أوشاهدنا حالات اغتصاب؟؟

صوت انفجار كبير على الطريق، على مقربة منّا يتزامن مع صوت ينادي عبر القبضة أن اتجهوا جميعاً أيها الأحرار عبر الطريق الزراعي، فهناك حاجز للجيش على الطريق العام، تنحرف السيارة بنا قبل اللطامنة بقليل حيث عدة سيارات تضم (أحراراً) كان بينهم صديق طفولتي أحمد، الذي راح يحدثني حين صعد بجانبي عن جهوده وأحواله والأوضاع بشكل عام، وحدّثته عن نيكولاس وقصتي الطويلة، وماهي إلا دقائق حتى نغدو في مواجهة الجيش!!، لقد اخترقوا ترددات القبضة، وأوعزوا للجميع بالاتجاه إلى الطريق الزراعيللقبض عليهم!!

الفصل العاشر

المشهد الثاني والأخير

ماءٌ باردٌ يفيقني من كل تداعيات الذاكرة التي أصابتني فجأة، بينما راح عسكريان يفكّان قيدي من على الكرسي الخشبي والضابط أمامي يكاد ينفجر غضباً من اصراري على الصمت وعدم الاعتراف أمام كاميرا التلفزيون الرسمي، فيأمر جنديين لأخذي إلى الغرفة الأخرى، ورَاحا يسحباني على الأرض والدنيا تدور في خلدي كاسم دمشق تماماً، كعاشق ذبحه الشوق كنت أتلوى على الأرض في حين أن أبطيّ مشدودان إليهما، فشعرت بأني ثابتٌ والأرض هي التي تتحرك من تحتي، هكذا هي الحرب لاشيء فيها منطقيٌ أبداً، أحد أبواب الغرف المتراصة مفتوح، فألمح فيه زميلاً كان معنا في الجامعة، فخمّنت أنه مراسل التلفزيون الرسمي الذي جاء ليحظى بتقرير المنتصر، دوماً نحن لا نسمع إلا خطاب المنتصر، وأنا الآن في طريقي زاحفاً لأكمل الخطاب بشكله النهائي، هنا ينسى الرجل كما لم ينس من قبل، فالشاعر يفشل والكاتب يفشل والمقاتل خارجاً يفشل على الصبر، أكاد أردد

كل ما أحفظ من القرآن الكريم وتراتيل الصبر لتحمّل قدوم الموت، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم، أين انت يا الله عمّا يجري ها هنا، ربّاه كل من ها هنا يقاتلون من أجل السماء فيدمرون الأرض، ساعدهم كي يتخطوا ما بقي لهم واطوعنهم البعد كي يصلوا سريعاً..

إنها الحرب حين يمتاز الخبيث من الطيّب، ويضيع الحق فلا تجده إلا في رصاص البندقية، فالقوة هي من تصنع الحق وتحميه خلال جولات الحروب، لا مكان هنا للفكر والقواعد، كلّ ماكان على الهامش يوماً يصير هنا متناً يبنى عليه!!

إنها قطعة منفى في أرض الوطن، منفى لا يعترف بكرامة المنفي أوحقوقه، لا ملك فيه إلا الضابط وسلطة المال، لا عاطفة ولا حسّاً هنا، الطريق يمتد، بينما كان وقع خطواتهما في الممر يترك أثراً قبيحاً أكثر من الرصاص في نفسي، لحظات وننحرف يميناً لأجد نفسي أمام الضابط حيث لا رائحة إلا الموت، كيف تغادر الرائحة مكاناً سكنته سنوات طويلة، لقد غادر كلّ شيء هذا الوطن، ولم يبق فيه إلا صوت السلاح وخطط القتل والخطف والاغتصاب..

إنه أحمد..

يحدث أحياناً في لحظات النهاية أن تتعثّر بأجمل الأشياء وأقربها إلى قلبك، فهل ما يزال هناك متسعٌ من الوقت كي نحكي ونتهامس عن عشق دفين، لا أظن، فقد هرب أحمد من السيارة مثلي، لكنه وقع بعد أن نفد كل الرصاص منه في أيديهم، بينما أنا لم يكن معي سلاح فأمسكوا بي فوراً..

- نعم يا سيدي.. صديقي صحفي كان جاي ليعمل تحقيق عن اللطامنة!!!

حاولت أن أتخيّل أنني سمعت خطأً ما، أوأن تلعثم الأشياء وصيرورتها دفعني للتخيّل، لا مجال أبداً للتخيّل إنها الحقيقة التي نطق بها، لا تلغ الحقيقة إن أغمضت عينيك عنها، الضابط يقترب من رأسي يصيح في وجهي اعترف.. لا مجال للإنكار..

- من أرسلك إلى هنا؟؟
- كيف أتيت؟؟
- من قابلت في الخارج؟؟
- من يسّر لك الطريق؟؟
- بكم بعت الوطن؟؟

أسئلة كرصاصات متسارعة خرجت من رشاش، بينما كدت أحبس رئتي كي لا أتنفس رائحته الكريهة حين صرخت فيه:

- أرسلني أطفال قتلتهم في حمص، وأتيت لأفضح جندي اغتصب امرأة لا ذنب لها في حربكم، وقابلت أمواتاً ومعطوبين ومشلولين ومقاتلين، إنها الحرب ولا عجب..

لا أعرف من أين أتتني الجرأة كي أقول ما قلت والكلمة كالرصاصة إن خرجت لا تعد، وكأنه كان جاهزاً لاستلال مسدّسه من خصره باتجاهي...

صوت انفجار دوّى في المكان، قذيفة هاون سقطت في باحة المطار، مئات المعتقلين هناك في لحظة التعري القبيحة، دماءٌ تناثرت على الحائط، كنت

أبحث بعينين مهزوزتين عن أحمد، بينما ركض الضابط نحوالنافذة كي يستطلع الأمر حين فاجأته قذيفة أخرى فعمّ الغبار المكان.. أصيح وحلقي يكاد يتشقق.. يا الله.. يا الله.. يا الله..

أعوذ بك من شرورهم وإني أجعلك في نحروهم..

يا الله... رائحة غريبة تخرّش أنفي.. جلدي يحرقني.. عيناي غابت.. إني أختنق.. أختنق.. أختنق..أختنق..

يتبع

لا يمكن أن أنسى، كيف لي أن أنسى هذه المشاهد، وكيف لذاك الطفل أن ينسى، وحدهم المجانين مرتاحون، فلا شيء يهمهم، مشاهد متتابعة كفيلم سينمائي قصير لتلك الخيام التي انتشرت في الزعتري على حدود الأردن، وأخرى في كلّس على الحدود التركية، حالة من العدم مصير هؤلاء، نساء وأطفال وشيوخ ومجانين وأشباه رجال، الدم في كل كف، في كل عين، في كل قدم، في كل كلمة، في كل حبة تراب، إنها الحرب، تعود الطائرات من جديد، نختبئ مرة أخرى، جميعاً نختبئ والبراميل تهبط فوقنا، ومن أتى حتفه يبقى مكانه دون حراك.

الزعتري، كلّس، حواجز الجيش، الحدود، العاصي، مقاهي دبي وجلسات التنظير التي كنا نحاول فيها، برفقة بعض الشباب، أن نحلل ونفكك ونركّب ما يحدث، كل ذلك لا يفي بالغرض ولا يرسم المشهد من جديد، وحده طفل لا يتجاوز الثانية عشرة سنة استطاع فهم المعادلة، انبرى بين الجميع، اتجه نحو صخرة ذات علو، وانتظر حتى تأتي الطائرة، رماها بحجر فقذفه قائدها بوابل من رصاص جعله لوناً على الصخر.. أمام هذا المشهد صرت يقيناً أنّ كل من هو خارج الحدود لا يعي الصورة الكاملة لما يحدث!!

9 789957 305116

Art Work At Cover By: Tigran Tsitoghdzyan

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com